رواية

عبد القادر زينو

ماتريوشكا

خبايا اسطنبول

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ماتريوشكا

خبايا اسطنبول

روايـة

عبد القادر زينو

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع الحقوق محفوظة لـ

دار القلم
للطباعة و النشر و التوزيع

طريق المطار - خلف مستشفى الساحل
قرب مدرسة المصطفى - بناية بدير
هاتف : 556976/8 (1 - 961 +)
فاكس : 555077 (1 - 961 +)
ص.ب. : 3874 - 11
الرمز البريدي : 11072150
بيروت - لبنان

Airport Road - Near Al
Mostapha School - Bdeir Bldg
Tel : (+961 - 1) 556976 / 8
Fax : (+961 - 1) 555 077
P.O.Box : 11 - 3874
Zip Code : 11072150
Beirut - Lebanon

info@alkalam.com
www.alkalam.com

جميع حقوق الملكية الادبية و الفنية محفوظة © **لدار القلم بيروت - لبنان** و يحظر طبع او تصوير او ترجمة او اعادة تنضيد الكتاب كاملا او مجزأ او تسجيلة على اشرطة كاسيت او ادخاله على الكمبيوتر او برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطيا.

Exclusive rights by ©**DAR AL KALAM Beirut-Lebanon**. No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without a prior written permission of the publisher.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

إلى أمَّةٍ تناجي أحلامَها وتبحثُ عنها،
إلى أمَّةٍ تتلمَّسُ خُطَاها لِتَرَاهَا.

للتوّ خرجت (غُل بَهار) من الشركة ، شركة الغاز التي تعمل فيها موظفةً ، لقد صارت الساعةُ الخامسة والنصف مساءً وهي تحتاج إلى أكثر من ساعة من الزمان حتى تصلَ إلى بيتها في الشطر الآسيوي من المدينة ، و هي محظوظة اليوم فلم يكلّفْها مديرها بعمل إضافيّ و هذه الأوقات هي مواعيد انصراف الموظفين والمعلمين ، ها هي تحني رأسها و تنظر إلى ساعتها خافضةً بمشيتها باتجاه (المترو).

شمس اسطنبول تقاوم المَغيب تمدّ أشعتّها الخافتة كأيدٍ واهنةٍ تبحث عن مغيثٍ ، والغيوم كحُجَّاب لئامٍ تتكتّل حولها ؛ رويدًا رويدًا تغرقُ في بحر الغروب .

*　　*　　*

آهٍ كم هو مسكينٌ هذا الشابّ الظريف (فرهاد) إنّه يعاني من وطأة الغربة عليه وظلم مدير ومالِك الشركة (راسبوتين) ذاك الأصلع الطويل يا له من ظالم لئيم ! .

(فرهاد) يعمل معي في نفس الغرفة من القسم (c) في الشركة ، كنتُ أخافُ منه عندما كان يتّصل بالهاتف و يتكلّم مع أبيه و أمّه اللذَين يقطنان في مدينة غُلستان إحدى محافظات إيران ؛ كنت أسمع أصواتاً خشنة مفخّمة و كأنَّه يصرخ أو يستنجد و لكن مع مرور الوقت زال خوفي و وحشتي و زادت أُلفتي قليلًا بهذه اللغة الغريبة. نحن هنا خمسةُ موظَّفين في هذا القسم أو في الواقع في هذا السّجن ! ، و (أردم) رئيس القسم أو (العم أردم) هو

صِمَام الأمان بالنّسبة لنا فهو دائماً ما يمتصّ سخط المدير (راسبوتين) علينا ، ويقف أمامه كالصّنم يتلقّى ويتلقّف بشخصه الشتائمَ عنّا مع أنَّه عجوز قاربَ السّتين ، و يعيش بعينٍ واحدة و بِكُليةٍ واحدة بعد أن تعرَّض لحادث أصابَ إحدى عينيه وبعد أن تبرَّع بإحدى كِليَتَيه لأحد المحتاجين كما قال ، و كثيرًا ما كان يساعدُ (درويش) في ترتيب الوثائق والمستندات في أمكنتها لأنَّه عادةً ما يغفُل عن أداء عمله ، أمّا (أوكتاي) فرجلٌ شهمٌ وكثيرًا ما يشتبك مع مدير الشركة في عِراكٍ كَلامي ، ليتدخَّل العمُّ (أردم) ليَفُكَّ الاشتباك .

* * *

يصدحُ صوتُ الإذاعة في (المترو) :

- الموقف التالي : (باندِك)

تَنزلُ (غُل بَهار) من (المترو) تَحُثُّ الخُطى إلى منزلها ، تدقُّ الجرسَ ، يفتحُ أخوها الصغير (ارماق) الباب ويرحب بمَقدِمِها مبتهجًا :

- أهلاً وسهلاً بك يا أختي هيّا بنا بسرعة لنلعبَ لعبة الأسماء والحيوان والنبات والجماد والبلاد ، هيّا !..

- انتظر قليلاً حتى ألتقط أنفاسي فأنا متعبةٌ جدًا .

- لا ، لا ، أريد أن تلعبي مَعي الآن .

تُقاطعُ أمُّهم حديثهما قائلة :

- هيّا يا (غل بهار) تعالي إلى المائدة بسرعة ، الغداء جاهز .

- حالاً يا أمي ، أنا قادمة .

- (غول بهار) كيف كان يومُ عملك اليوم هل كان مُتعِبًا ؟
- نعم ، لقد كان مُتعبًا بعض الشيء ، لكنني أتعوَّد عليه مع الوقت .

- وكيف تعلمّك العربية في المركز الأهلي ، هل تفهمين جيّدًا ؟
- طبعًا يا أمي .

(هنا في تركيا يغبطون المرءَ الذي يتعلم العربية، فعائلتي يغمرها السرور عندما أتمتم ببعض الكلمات العربية أمامهم وأبي لا يعرف العربية لكنه يقرأ القرآن الكريم وكذلك أمي) .

- جميل يا ابنتي جميلٌ ما أسمعه منك ، حماك الله ورعاك .
- (تحتسي حُسوةً أخرى من حساء الفِطْر الذي أعدته أمُّها وتقول) :
- شكرًا أمي ، رزقني الله رضاك .

* * *

-٢-

يرن جرس الهاتف :

- مرحبَاً ، أعطني السيّد (راسبوتين).

- أهلاً وسهلاً سيدي ، من يطلبه ؟

- قولي له الجحيم السوداء !!!

- سيّدي هناك شخص يريد أن ...

- أعطني إياه بسرعة :

- مرحباً (راسبوتين) كيف حالك أيّها الساقط ؟

- أهلاً بصديقي العزيز (ماتزوف) كيف حالك أيّها المنحط ؟

- أنا بخير ، بخير ، هيّا ماذا تفعل عندك ؟! نحن ننتظرك في حانة (الدبّ القطبي)

- حسناً ، حسناً أنا قادمٌ إليكم ، ترقّبوا هزيمتكم المؤكّدة على يديّ .

- إلى اللقاء .

- إلى اللقاء .

يأمر (راسبوتين) السائقَ بتجهيز السيارة للذهاب إلى الحانة ، يعقدُ الأزرار العليا من قميصه الأبيض و يرتدي معطفه الأسود الطويل ويمضي إلى ساحة الشركة .

- أين أنتَ أيّها الغبيّ ؟! تجمّدت من البرد وأنا أنتظرك !

- سيدي لقد كنتُ ..

- كنتَ ماذا ؟! هيّا هيّا امشِ ليس لديّ وقت .

- أمرك سيّدي .

يا لحظي التعيس ! ما لِهؤلاء الكلاب لا يؤدّون واجباتهم ، ألا يكفي أنّني أُطعمُهم وأُسقيهم ، ألا يكفيهم أنَّهم يعملون عندي ؟! عند المليونير (راسبوتين) سَأعلمُهم كيف يكون الالتزام بالعمل ، و سأهزم ذلك المنحط (ماتزوف) و أعلّمه كيف يكون لعب القمار ، ماذا يحسبون أنفسهم هؤلاء السفلة (ماتزوف) و رفاقه ، لقد هزموني جميعًا في المرة السابقة .

* * *

بيده اليسرى يمشّط فرو نمره الأصفر ، المخطط بالأسود جيئةً وذهابًا ، بينما ينفث بقرفٍ سُموم سيكاره الكوبيّ الفاخر الباهظ الثّمن وهو جالسٌ باسترخاء في المقعد الخلفيّ الأيمن من سيارته (مايباخ مرسيدس) الفارهة ويردفُ في نفسه :

لقد علّمتني الثروة أن أكون بومًا لمّاحًا ينقضّ على أصغر فريسةٍ ولو كانت فأرةً أو فرخَ عصفور أو قطعةً صغيرةً من لحم خنزير ! .

هذه هي الحياة إمّا أن تَسحق وإمّا أن تُسحق ، إمّا أن تُدمِّر وإمَّا أن تُدمَّر القويّ يأكل الضعيف و لا وجودَ لأنصاف الحلول وإنَّ **من لا يملكُ ، سيفقد كل شيء حتى ما يملكه .**

* * *

لا يمكنكُ أن تتمشّى في ميادين و ساحات و شوارعِ و أزقّةِ و اسطنبول العريقة دونَ أن تكتشف شيئًا جديدًا أو أن تجتليَ منظرًا فريدًا ،

يرخي ليلُها بلطفٍ سدوله عليها و تتلألأُ الألوان والأضواء المنعكسة عن العِمارات الشاهقة على صفحات شواطئها الرائقة ، في مثل هذه الساعاتِ المتأخرة من ليالِي الشتاء الباردة يَصعبُ عليك أن ترى أناسًا من أهل هذه المدينة غادين أو رائحين في الشوارع فالسواد الأعظم منهم يكونون قد آوَوا إلى منازلهم متحلّقين حول المواقد و المدافئ ، يستمتعون بأصوات طقطقة الحطب المتوقّد أو طقطقة لحاء الكستناء الصفراء الشهيّة .

السكون يعمَّ المدى والريح الباردة تَصفر وتجوسُ خلال الشوارع كرجل ضائع في متاهة ...

* * *

- سيدي : لقد وصلنا .

- كم مرّة قلت لك أن لا تقاطعني عندما أتابع مُجرَياتِ رهانات سباق الخيل ؟!

- آسف سيّدي .

- يا لك من سائق غبيّ !، تجوّل بنا بالسيّارة ريثما ينتهي هذا السباق .

يا لهم من حمقى ! دائماً ما يخرّبون عليّ أوقاتَ حماسي و اندماجي ، آه !

لا مشكلة ، كلُّ شيء يمكن حلُّه ، الحصان الذي يمكن أن ينافس حصاني الذي أختاره ، يمكن قتله أو تسميمه ، والفرسان المنافسون يمكنني رشوتهم والتخلص منهم ومن خيولهم .

يا للملل ، (يضحك) هَـ هَـ هَـ هَـ هَـا لقد فاز حصاني في السباق لقد فعلت

الرشوة والمنشطات فعلها ، ما باليد حيلة ، هذا مصير الضعفاء !

- ألم نصل بعد ؟!!

- ماذا ؟ يا سيّدي ألم تقلّ لي تجوّل بنا قليلًا ريثما ينتهي رهانات سباق الخيل ؟!.

- ها ! نعم ، قلتُ لك ذلك ، لكن إلى متى سيستمر سباق الخيل هذا أ إلى الأبد ؟ هل تظنُّ أنَّ خيولَ اليوم ما زالت قادرة على العدو ، لقد صارت ضعيفة ، من المؤكد أنَّها تعدو لمسافات طويلة بسرعات عالية في السباق الواحد لكنّها سرعان ما تتعب على عكس الخيول في الماضي التي تجري أياماً دون تعب ، أين هذه الحانة اللعينة ؟! هيّا نزّلني يا لك من غبيّ !

- حسناً سيّدي لقد وصلنا ، تفضّل بالنزول .

يمضي (راسبوتين) إلى الحانة حاملًا مظلّته السوداء الطويلة فوق رأسه الأصلع الناصع الذي يكاد يضيء تحت قبعته المخمليّة الكُحليّة القصيرة محتمياً بمظلّته من المطر الذي شرع يهطِل ، لطالما تساءل النّاس في (موسكو) عن سبب تغطية (راسبوتين) لرأسه دائمًا إذ لم يُرَ البتَّةَ بغير غطاء لرأسه ، يقولون أنّه يفعل ذلك بسبب كُرهه الشديد لأن يُرى أصلعَ لكن ما الذي يمنعه من أن يعمل زراعةً للشعر ؟! ويقولون بأنّه يخفي تحت قبّعته هذه قَرني شيطان لكن أيضًا لا يُمكن لأحدٍ أن ينفي أو يؤكّد..

يقترب (راسبوتين) من مدخل الحانة لتشتدَّ روائح الخشب المسترطبِ بالخمور وأدخنة التّبغ والسيكار العفِنَة ، وينزل سبعَ درجات تنتهي بباب حانة (الدب القطبيّ) ، يدخلُ الحانة فيشعرُ بحرارة زائدة عن

المقبول ، شَعَرَ وكأنّه في حمّام تركيّ بعد طول مشقَّةٍ رأى طاولة رفاقه بسبب الدخان الذي يتحرك ببطء شديدٍ ، يلوّحُ بكفيه محاولًا تبديدَ سحب الدخان الكثيف الذي يشفّ عن لحوم النساء البيضاء المكشوفة المستوردة وهو يمشي إلى الطاولة ، وبصعوبةٍ بالغةٍ استطاع رؤيةَ طاولةَ الرفاق الكرزيّةِ المُعتمةِ من بين طاولات البلياردو، وآلات اللهو والقِمار النجسة التي تضِجُّ بالألوان الصارخة .

يَصلُ (راسبوتين) ركنَ الزملاءِ و يخلع معطفه و يعلِّقه على ظهريّة الكرسيّ مُشيرًا لمرافقه بظاهرِ يدِه بعدم الحاجة لمساعدته في ذلك ، ثمّ يسحب الكرسيّ وسط ترحيب الرفاق و ابتساماتهم الماكرة والمنافقة والمرحِّبة في آن و يجلس معهم .

- صديقي الحميم (ماتزوف) كيف حالك ؟ ما هي آخر صفقاتك ؟ أعرفك تاجر بناء بارعًا .

- آخر صفقاتي !! تريدُ الحكومة هنا رفعَ نسبةِ الضرائبِ على المستثمرين !

يعلو ضحكهم وسط اللغط والكلام العشوائي غير المفهوم، بينما يفكّر (راسبوتين) بالطريقة التي سيتخذها للفوز على خصومه .

- يا ولدُ ، أحضر لنا بعض الخمر علّها تمدنا ببعض الدفء من توهّجها لقد جفّت حلوقنا هيّا بسرعة .

* * *

-٣-

يكاد الماء يصبح جامدًا في مواسير المياه من شدة البرد ، يبدو العم (أردم) مكزوزَ الجسد يوحوح في يديه وينفخ محاولاً تحصيلَ بعض الدفء ، ينادي من المطبخ زوجَتَه:

- يا (خيريّة) ألّا دفّأت لي بعض الماء من أجل الوضوء ، لم يتبقَّ لآذان الفجر سوى نصف ساعة .

- حالاً يا زوجي العزيز ، لكن ارفق بنفسك اليوم وأخّر صلاة الفجر قليلاً ، فالجو زمهرير .

- لا مشكلةَ ، دفِّئي لي بعضَ الماء أريدَ أن ألحقَ صلاةَ ركعتَي التهجّد .

- حسناً كما تريد .

تضعُ (خيريّةُ) بعضَ الحطب في المِدفأة المعدنيّة وترشّ بعضَ المازوت المحليّ عليه ثم تشعل المدفأة راضيةً نشيطةً .

* * *

حَماك الله يا زوجي العزيز وبارك بك ، لم تدَّخر جهدًا لتربية بِنتينا التربيةَ الصالحة وتزويج ابننا الوحيد رغمَ فقرنا، وإطعامهم الرزقَ الحلالَ حتّى كبروا و التحقوا بالجامعة، جزاك الله خيراً على صبرك على العمل الطويل عند (راسبوتين) رغم قذارته و تكبّره وسوء أخلاقه ، لكنْ ما باليد حيلةٌ ، فنحن بالكاد نُحصّل ما يسدّ الرمقَ من عائد نصَبِكَ .

- الله أكبر ، ((بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾)) آمين . [1]

((تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠))) [2]

التحيّات لله والصلوات الطيبات المباركات ... أشهد أن لا إله إلا الله ...

السلام عليكم ورحمة الله ، يرفع يديه بالدعاء : اللهم انصر الإسلام والمسلمين ، واحفظ وطننا وشعبنا من جميع أنواع المصائب والأخطار ، اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ، واعطف على أمهاتنا وآبائنا وجميع العالمين ، إنّك سميع مجيب الدعوات . آمين

يقوم العم (اردم) من مُصَلّاه إلى مجلِسه و مُصْطَلَاه يدفّئ يديه وقدميه .

- تقبّل الله ، روحي .

- منا ومنكم صالحَ الأعمال .

- أيقظي حفيدنا لآخذه معي لأداء صلاة الفجر في المسجد .

---

[1] ( ) سورة الفاتحة

[2] ( ) من سورة السجدة .

- (إلبر) ! هيّا يا (إلبر) قم توضأ ليأخذك جدك إلى صلاة الفجر في المسجد .

- لا ، لا أريد ، أريد أن أنام قليلاً فالجو بارد إد إد إد !

- قم يا بني ، صلّي الفجر ، ثمّ نَم قدرَ ما تشاء .

- أووف، جدّتي أرجوكِ أريد أن أرقُدَ خمسَ دقائق فقط ، خمسَ دقائق .

- هيّا يا بنيّ انهض ولا تتعبني . (تدغدغه من باطن قدميه) .

- هاهاهاهه ، حسناً ، حسناً لقد استيقظت دعيني جدتي، دعيني هاهاهاهه .

لقد أصبحتُ في السابعة والخمسين من العمر ، ولم يتبقَّ إلا ثلاثُ سنوات و أحال إلى التقاعد ، لن تشفعَ لي السنون الثلاثون التي أمضيتها في خدمة (راسبوتين) و خدمة شركته في أن يقبلَ أن أتابع العملَ خمسَ سنين أخرى بعد سنّ التقاعد معَ أنّها شركةٌ خاصةٌ، أنا من يعرفه ويعرف طباعه ، يا ربّي ! كيف سأتدبّر أموري ؟ كيف سأوفرّ نفقة أجرة المنزل وفواتير الماء والكهرباء و الحطب ؟ كيف سأوفّر نفقات ابنتيّ الطالبتين في الجامعة ؟ ابني (مراد) يعملُ في ورشةِ الخياطة من الصباح إلى المساء و هو أيضاً بالكاد يؤمّن معيشته وزوجته حامل و سيُرزقان بأخٍ أو أختٍ لـ (إلبر) فلا يمكنني أن أطلب منه أي مبلغٍ ولو كان صغيراً فهو و عائلته أحقّ بأمواله مع قلتّها ، وأنا أعرف أنّه لا يبخل على أختيه من حينٍ لآخر فيعطيهما مما يجمعه من عمله الإضافي في الورشة ، آه يا إلهي ! أنا أحتاج لمعجزة لتوفير الحدّ الأدنى من المعيشة والتعليم لأبنائي ، ماذا يمكن أن أفعل ؟ هل أنتحر ؟! آه لو كان الانتحار حلالاً لكنت انتحرت منذ زمن بعيد ! لكنّه ليس حلًّا تخيّل لو أنَّ

كل إنسانٍ واجهته المشكلات من أبسطها إلى أشدها فانتحرَ ماذا يُمكن أن يحصل ؟ لأُبيدت البشريّة عن بكرة أبيها !!

اللهُ هو الرزّاق ، ألا يقولون يولد كل مولود ويأتي رزقهُ معه ، والله يقول إنّ من يتقه يعطه مفاتيح الفرَج ، لا أذكر الآية ، لقد سمعت هذه الموضوع من أحد الخطباء في خطبة الجمعة ، أنا والحمد لله رجلٌ صالحٌ على ما أعتقد أصلّي الصلوات وأقوم من الليل كثيرًا بعد العشاء وأتهجّد قليلًا قبل الفجر وأصوم رمضانَ و أدعو للمسلمين والمظلومين بالفرَج ، لكن أحوالي الماليّة لم تنصلح ، ولم تتحسن !

هل هذا ابتلاء ؟! هل ما نحن فيه هو ابتلاء ومصائب تُقرّبنا من الله !؟ هل نحن بصبرنا مأجورون ؟ ، مأجورون ؟! ماذا تقصد ؟! هل من الممكن أن نكون موزورين ؟ أرجو أن لا تكون هذا الابتلاءات ببعضِ ذنوبنا .

لماذا خلق الله الدنيا بهذا الشكل يوجد فيها الظالمون و المظلومون والأغنياء والفقراء ، المطيعون و العصاة، لماذا ؟!

ماذا لو خلقنا الله هكذا مسيّرين لا قدرةَ لنا على الظلم و لا على تلقيه لا أن يصدر منا ولا ان نمارسه على غيرنا !

أنا مُجرّد موظفٍ عند واحدٍ من أكبر أثرياء اسطنبول ماذا يمكن أن أفعل ؟ على ماذا يمكن أن أؤثّر ؟ بماذا يُمكن أن أنفع ؟!

آه ، لا أعرف ، لا أعرف ، سئمت الحياةَ وتعقيداتها !.

* * *

ينطلق العمّ (أردم) بحفيده الأثير (إلبر) إلى مسجد(محمد الفاتح) الكبير و

القريب من بيتهم الاسطنبوليّ الخشبيّ التقليديّ القديم لِيَصدَح عليهم مؤذن الفجر على مقام الصبا بلسان عربيّ مبين و بصوت رخيمٍ منبعثٍ من أعماق قلبه ، يكاد يخلع به قلوبَ السامعين من حُجراتها و يرتقي بها في السموات إلى ما فوق الثريّا .

الله أكبر

الله أكبر

الله أكبر

الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمدًا رسولُ الله

أشهد أن محمدًا رسولُ الله

حيَّ على الصلاة

حيَّ على الصلاة

حيَّ على الفلاح

حيَّ على الفلاح

الصلاة خيرٌ من النوم

الصلاة خيرٌ من النوم

الله أكبر

الله أكبر

لا إله إلا الله

* * *

- تقبّل الله منك يا بنيّ الجميل
- تقبل منا ومنكم جدّي .
- ما رأيك أن آخذك في نزهة في (المترو) ؟
- نعم يا جدي ، لكن ما هو (المترو) ؟
- تعالَ ، الآن سوف ترى .
- جدّي ما هذه البيوت المضيئة التي تتحرّك وتمشي ؟

- هذه ليست بيوت ، إنَّها عربات القطار يا بنّي ، أو لعلّها مستودَعُ أسرار وقصص النّاس وحكاياتهم .
- ماذا تقول يا جدّي ؟
- لا شيء ، لا شيء ، هيّا تعال لقد وصلنا هيّا نركب قبل أن يفوتنا القطار .
- حسنًا جدي ، هيّا بنا .

* * *

-٤-

صَوتُ طرق شديد بضرباتٍ متتاليةٍ على الباب ، يكاد الباب يُخلعُ من شدة الطرق. من عساه يكَون ؟! ، من سيأتينا في هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟! يا إلهي !!

- افتحوا الباب ، افتحوا الباب بسرعة ، وإلا حطّمناه فوق رؤوسكم !.

- إم إم من أنتم ؟ وماذا تريدون منا ؟

- هل هذا بيت (درويش) هل يسكن (درويش) هنا ؟

يا إلهي إنّهم يريدونني ، ما هؤلاء يا تُرى ؟! وماذا يريدون منّي ؟

أنا لم أَؤذِ أحدًا ، و لم أنافسْ أحدًا ، ما فكّرتُ ولن أفكّر في ذلك أبدًا ، يا إلهي سيحطمون الباب ، قدماي ترتجفان ولا تقويان على حمل جسدي ، و ركبتايَ ارتختا ، ماذا أفعل ؟! أُمّي مريضة ، وسيُرعبها منظرهم جدًا ، إنّها تحبُّني أكثر من نفسها ، أسمع أصواتَ ملءِ مخازن السلاح إنّهم يتهيّؤون لاقتحام المنزل ، يا ربّي!!!

- من أنتم ؟؟ وماذا تريدون من ابني إنّه لم يفعل شيئًا ؟ ماذا تريدون منه ؟ اتركوه ، اتركوه ، صاحت أمي.

أسندوني إلى الحائط بعد أن وضعوا مسدسًا في رأسي ، وأخذوا بتفتيشي شبرًا ، شبرًا ، نحن يا سيّدي أناسٌ فقراء مستورون ، لم نفعل شيئاً ولم نؤذ أحداً تصيح أمّي ، وجعلوا يفتّشون بيتنا الصغير ويخرّبون أثاثه و محتوياته على قلّتها وبساطتها ، غير آبهين بصراخ أمي وبكائها .

- أَخرِجوا أمّه إلى الغرفة الأخرى ، سنتخلّص منه !

- لا ، لا أرجوكم ، إنّه ابني الوحيد أرجوكم لا تفعلوا أقتلوني أنا مكانه .

- ابتعدي أيّتها العجوز ، لا شأن لنا بكِ ، أبعدوها إلى الغرفة الأخرى قلت لكم ، ما بكم ؟! كلُّ واحد ينظر إلى الآخر ، هيّا بسرعة تحركوا !

- هكذا إذن تريد تسريب وثائق الفساد في الشركة يا حقير ، نحن رجال(راسبوتين) أيّها الجرذ ! . ابتعدوا عنه واتركوه مسنودًا إلى الحائط و أقتلوه حالًا ! .

تُلقّم العصابة أسلحتها وتُوجّهها إلى (درويش) ويطلقون نيرانهم، وقبل أن تمزّق رصاصاتُهم الحارقةُ جسدَ (درويش) يصرخ بأعلى صوته صرخةً تكاد توقظ اسطنبول كلها :

- أمّي ...!!

* * *

تُبهرُ أمّه من الصراخ وتستيقظ على إثره و تتحامل - وقد هدّها مرض الشتاء - على نفسها و تلتفت وهي مستلقيةٌ على شقّها الشمال إلى شقّها الأيمن و تجفف بالمنديل الورقي حُبيبات العَرَق على جبهة ابنها الجالس على كرسيّ بجانب سريرها يطبّبها وتقول له :

- (درويش) هل أنت بخير يا بُنّي ؟! يبدو أنّك كنت تحلم بكابوس .

تتتابعَ شهقاته و زفراته مجيبًا :

- نعم يا أمّي .

- اذهب واشرب بعض الماء و استرح يا بنّي ، أنا بخير ، وسأتحسن بعون

الله ، اذهب هيّا يا بنّي .

- لا يا أمّي لا استطيع ، يجب أن أطمئن على حالك ، وأغيّر لك الكمّادات .

- اذهب يا بني ، فأنت مُتعب ، ولم تنم طَوال الليل ، وغدًا عندك عملٌ من الصباح الباكر .

- لا بأس يا أمي ، أعطاك الله الصحة والعافية .

يذهب درويش إلى المغسلة ، فيغسل الكمّادات ثم يعصرها مرارًا ، يشرب كأسًا من الماء من الإناء المخصص للشرب ثمّ يغسل وجهه و يعود ليضع الكمّادات على جبهة أمّه .

* * *

-٥-

ما هذه الحال !؟ أصوات السيارات لا تهدأ مع أنّ الوقتَ ليلُ ، نسيتُ ، يا لَنِي من غبيّ فأنا أسكن في بيت على الشارع العام فكيف ستهدأ هذه الأصوات !؟ لربَّما بِتُّ أشعر بحساسية مفرطة تِجاهَ أصواتِ عجلات السيارات التي تمُرُّ بسرعة مذهلة وبكثافةٍ كلَّ يوم ، لربَّما أصابتني هذه الحساسية من صديقي العزيز (خلدون) ذلك المسلم العربيّ الآتي من الجزائر التي كانت إحدى أراضي الحِمَى العثمانيّ ، إنَّه دائمًا ما يقول لي إنَّ اسطنبول تُشعرِكَ بتفاهتك أو بحقارتكَ أو بتفاهة تأثيرك ، أو هكذا شأن المدن الكبرى ، لكنَّ اسطنبول مدينة مسلمةٌ مؤمنةٌ تعبدُ الله ، وتَقْنَتُ له .

نتقاسم البيت الصغير أنا و(خلدون) ، الذي يدرس الآن في قسم علم الاجتماع في جامعة اسطنبول، هو الآن في السنّة الرابعة والأخيرة ، و كثيرًا ما نتسامر ونتحدّث عن القضايا الاجتماعيّة والدينيّة والسيّاسيّة والثقافيّة في العالم خاصّةً و أننا نعيش في اسطنبول، المدينةُ التي حُكِم العالم من خلالها تحت رايّة الخلافة العثمانيّة ، مع أنني أعملُ في شركة غاز موظفًا إلا أنّ لي اهتماماتي و اطلاعاتي وقراءاتي الثقافيّة و الإسلاميّة، نجحت بالالتحاق بالجامعة في قسم التاريخ منذ خمس سنين إلا أنني اضطررت إلى التوقّف عن الدراسة في أول السنة الثانيّة من أجل العمل ومساعدتي والدي في مصروف البيت بعد أن أحيل للتقاعد ، و على سيرة التقاعد أشعرُ بالأسف لهذا الشأن فبلدي تركيا تُعدّ من الدول الفتيّة و لكنّها في عام ٢٠٢٣م ستعدُّ من الدول ذات نسبة شيخوخة مرتفعة إذ ستصلُ نسبة المُسنّين إلى ١٠

% من مجموع الشعب، أي ما يُقارب ٨ ملايين و٦٠٠ ألف عجوز !! يا إلهي يا لها من نسبة مرتفعةٍ جدًّا، لكّنها لن تثبت عند هذا الحدّ بل يتوقّع الباحثون أن يصل هذا الرقم إلى ١٩,٥ مليون نسمة في سن الشيخوخة في منتصف القرن الحالي و التعداد السكاني سيصل إلى مئة مليون نسمة في العام نفسه في تركيَةَ ثُمّ يستقرُّ الرقم عند هذا الحدّ لكن مع ازدياد نسبة الشيخوخة و هذا أمر مؤسفٌ حقًّا، أعتقد أنّ السبب في ذلك محاولة السير على خطى الغرب من قِبَل بعض أبناء هذا الوطن الذين لم يدركوا فداحةَ توجّههم إلى تحديد النسل الذي أدّى إلى خلق قارّة عجوز في أوربة، في السابق والآن أيضاً يوجد من تأفف من الدعوة إلى زيادة الانجاب ، هل يريدون منّا أن نكون شعبًا شيخاً كأَوْرُبّة تلك المهوسين بها ؟ و بوادر انفراط عِقدها الواهي المصلحوي لا تفتأ تظهر، أم هم يريدون منا أن ننقرض و نفنى عن بكرة أبينا و لا يبقى منّا أحد يسبّح الله ؟! أم أنْ نصيرَ عبيدًا نخضع لأوامرهم وإملاءاتهم ؟!

أعتقد أنّ المسألة لها علاقةٌ وثيقةٌ بالثقافة فالذي يؤمن بالواقع و ينقاد له فهو ينسى الله أَلَم يقل الله تعالى : (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا)[٣]

دونَ أن ننسى الصبر و قد خصصت الحكومة عطايا لمن ينجبُ أكثر، هذه سُنّة الحياة أطوارٌ مختلفة من حالٌ إلى حال لا شيءَ يدوم و لا شيء يبقى لكّن الفطِن من سدّد وقارَب.

---

[٣] ( ) الآية : (٣١) ، سورة الإسراء

أرى أنَّ الحصن الأوّل و الأخير و المعقلَ العزيز لأمّتنا هو الإسلام ، فالإسلام يدعو إلى كلّ قوة و خير و صلاح و رَشَدٍ، و ينفّر مِن كلّ ضعف و شرّ و فساد ، فالأسرة في المجتمعات الأوربيّة مفكّكة هشّة كغُبارٍ في مهبّ الريح، هل يريدون منّا أن نصبح مثلهم أم أنّه الخَوَر و الاستخذاء والتفاهة و الإمّعيّة !!

و من تلك الحصون التي يريد تدميرها أعداء الداخل والخارج حصن الأسرة و حصن العادات و التقاليد الحسنة من تقديرنا الكبير للأسرة و للكبار و للمسنّين و للمعلميّن و للعلماء . فالبعض ممن يعيش معنا يريدون منّا أنّ نكون أمّةَ عجائز !!

نحن لا نتكلّم عن الأموال التي ستتكبّدها الدولة لقاءَ رعاية هؤلاء المسنين و العجزة من تأمين الأدوية و الرعاية الصحية لهم ، معاذ الله فهذا واجبنا و حقّهم و لكني أتكلّم عن هذه العقلية الفارغة التي تدعو إلى نشر الضعف و الاضمحلال في الأمّة تحت قناع (الحداثة) أو (العلمانيّة) !!

إنّ هؤلاء الحداثيين يحسبون أنّهم يحسنون صنعًا لكنَّ نورَهم ما هو إلا كالفحم أسوَد !.

يظّلُّ (أوكتاي) جالساً في مكتبه مطرقًا ،و مسندًا رأسَه بانحناء على قبضة يده اليمنى، مفكّرًا بموضوع المقال الذي سيكتبه ويرسله لصحيفة (الصراط المستقيم) .

- (أوكتاي) هل ما زلت مستيقظًا .

- نعم، أُفكّر بالموضوع الذي سأكتب عنه مقالاً ، ربّما سأكتب عن شيخوخة

المجتمعات .

- هذا جيّد، ماذا تنتظر إذن ؟

- لا شيء ، أنتظر أن تحضّر لنا كأسين من الشاي (يضحك)

- حالاً يا صديقي العزيز .

- (خلدون) !

- ماذا هناك ؟

- بسكّر خفيف من فضلك.

- حسناً ، حسناً كما تريد .

يَصُبُّ (أوكتاي) الشاي الذي حضّره (خلدون) مُصدرًا خريرًا دافئاً له بخارٌ ، و على سطح الشاي المختمر كالدَّمِ القاني تطوفُ رغوةٌ بيضاءُ وكأنّها الرغوة الظاهرة على أمواج البوسفور .

يقوم (أوكتاي) من كرسيّه و طاولته حيث يطالع الكتبَ ليجلس على السرير واضعًا قدمه اليمنى تحت فخذه اليسرى، ليقول مخاطبًا :

- إيهِ يا خلدون، أريدُ أن أكتبَ مقالاً عن شيخوخة وشباب المجتمعات ، فماذا تعرف عن ذلك ؟

أنا أرى أنّها قضيةٌ ثقافيّة و وطنيّة بالدرجة الأولى .

- ماذا تقصد بـ "ثقافيّة" و "وطنيّة" ؟

- أقصد أنّها "ثقافيّة" من جهة طريقة عيش هذا المجتمع أو ذاك، فمثلاً نحن هنا في تركيّة، مجتمع مسلم، والإسلام يحضّ على الحصول على كلّ قوّةٍ ممكنة، و من ذلك قوّة المجتمعات وشبابها و فتوّتها، على عكس ما يريد أعداءُ هذا

الوطن، في سعيهم إلى تقليد الغرب، لنصبح أمّة عجائز كما هم يتسوّلون اللاجئين الآن لترقيع هذه المشكلة، فالمشكلة ثقافيّة من جهة عدم تقدير الناس لما بين أيديهم ، و وطنيّة من جهة محاولة إضعاف هذه الدولة .

يشرب رشفات من الشاي الحار ثم يزفر مخرجًا الحرارة عن طريق الزفير الساخن و كأنه يُدخّن .

- نعم أنت محق يا (أوكتاي)، يقول علم الاجتماع أنّ شيخوخة مجتمع ما تؤدي إلى الكثير من المشكلات منها : تقلّص اليد العاملة و هذا التقلص المستمر يؤدي إلى تناقصٍ في الضرائب التي تجمع و تؤخذ من الأيدي القادرة على العمل و التي ترفد الصندوق المالي لنظام الضمان الاجتماعي! فعند ذلك تزيد نفقات الدولة على المتقاعدين و العجزة لرعايتهم مما يؤدي في النهاية إلى الإفلاس الأكيد و من ثَمَّ غرق هذا الدولة في الديون، و أرى أنّ أيّ نقص أو ضعفٍ في مجال ما في الدولة فهذا يعني نقصاً محققاً في السيادة .

- شكراً لك على هذه الأفكار القيّمة يا صديقي العزيز.

- عفواً ، (يبتسم) لا داعي للشكر، و أودُّ أن أشير إلى شيء آخر و هو العوامل المؤثرة في زيادة معدلات الخصوبة السكانيّة أو تناقصها ففي الثقافة الغربيّة أو ثقافة الانحطاط الغربي يفصلون بين الحمل و الجنس و الزواج، بل و يريدون تصدير انحطاطهم إلينا!!!

فالمرأة في الغرب تمارس الفاحشة مع رجل ثم تتزوج من رجل آخر، و كثيراً ما يقومون بالإجهاض، ثم تتبنى هذه المرأة طفلاً آخر، ناهيك عن الشذوذ، و الفظائع الجنسية التي هم غارقون فيها فكيف سيحققون الزيادة في معدلات

الخصوبة السكانيّة ويحلون هذه الكوارث التي لا حصر لها؟!

راحوا يشجعون هجرة الكفاءات و العقول من بلاد "العالم الثالث" أو "العالم الثاني" من أجل ترقيع و تلافي المشكلة !!!

ولكن أكثر ما دفع اللاجئين إلى الهجرة هي الحروب التي شَنَّتها هذه الدول نفسها " المتحضرة" على بلاد اللاجئين أنفسهم .

- نعم، كما تقول مع الأسف، و شكراً لك على إغنائي بالأفكار لكتابة المقال .

- لا داعي للشكر يا صديقي العزيز .

ينهض (خلدون) و يلتقط كأسي الشاي الفارغتين إلا من وَرَقِه الرَّطْب و يضعهما على الصينية و يمضي بهما إلى المطبخ دون أنْ يهتمّ بتأخر سهر (أوكتاي) إلى هذه الساعة المتأخرة من الليل لأنه يعرف عاداته وطباعه في الضغط على نفسه في المطالعة و القراءة ليلًا مع وجوب الذهاب إلى العمل صباحًا .

* * *

-٦-

يُقيمُ (فرهاد) في (تقسيم) في حيّ (بي أوغلو) تحديدًا حيثُ يسكنُ هو ومجموعةٌ من الشباب الآسيويّين والأفارقة يبلغُ عددُهم جميعًا معًا عشرة أشخاصٍ يتقاسمون بيتًا قديمًا باتجاهٍ داخليٍّ يُطلُّ على اسمنت وقرميد وشبابيكِ العِمارات الأخرى، فهو بيتٌ مؤلَّفٌ مِن ثلاث غُرَفٍ يُدبّرون فيه معيشتَهم .

تَستيقظُ حمائمُ (تقسيم) ولم يستيقظ (فرهادُ) بعدُ ، تغدو إلى ساحات وميدان اسطنبول بعيونها البرتقالية وبنظَرَاتها الوادعة وبعنقها الأخضر وبصدرها البنفسجيّ وبريشها الأبيض والأسود والرماديّ وبأقدامها الرقيقة كَيَدَيْ طفلٍ حديثٍ الولادة، تبحثُ عن رزقِها وتطلبه ، سُرعان ما تَجِدُهُ، تقفزُ و تتطايرُ و تذهبُ و تحومُ و تعودُ و تهدلُ بصوتٍ حزينٍ، أو لعلّها تُسبِّح بها وتشكرُ خالقها على نعمائه وآلائه، يأتي بائعُ البذور في موعده اليّ دون أدنى تأخّرٍ ، تراه الحماماتُ والعصافير وهي على الأشجار فتتنادى، وتُهَيِّئُ نفسها لتناوِل فطورها، تهدلُ سعيدةً لِمقدَمِ الرجُلِ.

الصباحُ أتى، والشّمسُ تشرَعُ بتجفيفِ الأرضِ من مياه أمطار ليلة البارحة ، وتتغضَّنُ صفحات مياه بحيرة (küçük çekmece) الباردة كتغضُّن وجوه كؤوس السّحلب والمهلبيّة التي تُعدُّها الأمهات لأطفالهنّ صباحًا قبل الذهاب إلى المدارس ، يفتحُ بائعُ البذور كيس البذور ويأخذ قبضةً مِلءَ راحة يده من الحَبّ وينثرها على الأرض هنا وهناكَ في أماكنَ متفرّقةٍ .

يمتلئ ميدان (تقسيم) رويدًا رويدًا بالنّاس الغادين إلى أعمالهم

وأشغالهم، ويفتحُ أصحابَ المحالّ والبقالاتِ والمكاتب والأرزاق و دكاكين الصِّرافة والساعاتِ محالَّهم .

اسطنبولُ مليئة بالسَّاعاتِ و بمصلِّحي السَّاعاتِ مُحدَودبي الظَّهر غائري الأعين ، مُتْقِني العمل ، تلك الساعاتُ التي تنتصبُ وسطَ الساحات والميدان لتذكِّر النّاس بالوقتِ ، لأنَّ الوقتَ في المدن الكبيرة يمرُّ بسرعةٍ تضاهي كِبَرَ هذه المُدُنِ . بينما يظهر من بين الجُموع طفلٌ يسير معَ أُمِّه فيُفلتُ يدها بسرعة خاطفة كعصفور أرخيت يدك عنه ، و يركُض منقضًّا على تجمُّعاتِ الحَمام حتى يمسكَ بواحدةً منها لكنّها تبتعِدُ بسرعةٍ وهي تُقدِّمُ رأسها وتؤخِّرُهُ فيزيدُ الطفل من سرعته لتتطايرَ الحمامات متفرقةً و ضاربةً بأجنحتها في الهواء فوقَ الأرضِ المبتلةِ التي تتلألأ من أشعّة الشمس الذهبيّة في مشهدٍ رائع حميمٍ يتكرّر في كل مكان من ميادين اسطنبول وحاراتها وأزقّتِها .

يرنُّ منبّهُ الساعةِ في غرفة (فرهاد) فيستيقظ زميله الأول في السكن (جميل) مُتأففًا طائشَ اللّبِ مُزعجًا، فيتأمّل (جميلُ) في السقفِ وقد تقشّر دِهانه من أثر الرطوبة فتسقطُ على وجهه قشورٌ بيضاء كالثلج وباطنها فضيّ، فيمسحُ وجهه من هذه القشور، و في ذات الوقت يستيقظُ (صامويل) الغابونيّ على هدير منبّه الساعة الذي لم يُوقفه (فرهاد) !.

- **(فرهاد)** يصيح (جميل) .

ما من إجابة من (فرهاد) ويرتفع صوت شخيره زيادةً .

- **(فرهاد)** يصيح (جميل) بصوتٍ مرتفعٍ أكثر.

- ماذا هناك يا (جميل) ؟

- لا شيء لا شيء أبدًا ، فقط أردتك أن تستمعَ إلى تغريد الطيور على الأشجار في هذا النهار الجميل !!

- قُم أوقف المنبه ودعنا ننم قليلًا حُبًّا بالله (يصرخُ جميل)

- ماذا ؟! هل أزعجتكم بهذا المنبه ؟ ألا يوجد لديكم عملٌ أيضًا ؟!

- بلى بلى يوجد لدينا عمل لكنّه متأخرٌ خمسًا وعشرين دقيقةً عن عملك يا (فرهاد) يصيحُ (صامويل) ويشدُّ اللحاف فوقَ رأسه .

- وأنت أيقظتنا قبل موعدِ عملنا بخمسٍ وعشرين دقيقةً كاملةً ، هيّا قم أوقف المنبه وإلا حطّمتهُ فوقَ رأسك (فرهاد) صرخَ (جميل) وهو ينهض ويرفس اللحافَ من فوق جسده ويستقيم جالسًا على السرير محملقًا باضطراب بعينيّ (فرهاد) المغمضَتين.

- حسنٌ ، حسنٌ سأوقفه .

يقومُ (فرهاد) من سريره متهالكًا متماوتًا ليضعَ ثقلَ يده فوقَ زر المنبه فيضغطه ويوقفه، ويذهب إلى الخلاءِ ليقضيَ حاجَتَهُ .

- أُفٍ له ، قُم يا (جميل) إلى خزانة (فرهاد) واسرق منها تبغًا يكفي لصنع لفيفتين من السجائر عقابًا له على إيقاظنا في هذا الوقت المبكّر ، هيا يا (جميل) قبل أنْ يرجع هيّا.

- رائع، فكرةٌ ممتازة ، ينسلُّ (جميل) من سريره زاحفًا كالأفعى إلى خزانة (فرهاد) يُمسك بمقبضها ويشدّه، فلمْ تُفتَح، **(صامويل) إنّها مقفلة، برأيك ماذا يجبُ أن نفعل ؟**

- وماذا تريدُ أن نفعل ، لن نفعل شيئًا، دعني أنامُ بضع دقائق قبل أن أذهب إلى الجحيم .

- يرفعُ (جميل) وسادةَ (فرهاد) فيجدُ سيجارَتين ملفوفتين وجاهزتين . فيبتسم ابتسامةَ من وجَدَ كنزًا في مجاهيل أفريقيةَ

- انظر يا (صامويل) لقد حصلنا على ما نريد، سيجارتين بالتمام والكمال .

- هذا رائع يا (جميل) ، الآن هيّا اذهب وحضر لنا القهوة لنشربَها مع هاتين الغنيمتين و اتركني لعلني أستطيع أن أنام قليلًا حبًّا بالشياطين !!

- ماذا قلت ؟ تريد قهوةً ؟! ومن قال لك أنّه يوجد قهوة ! ، قهوةً قال، قهوةً ، لقد اشتريت نصف كيلٍ من القهوة منذ أسبوعين ولقد سطا عليها زملاؤنا الآخرين في السكن وأنهَوا أمرها خلال ثلاثةِ أيامٍ فقط، ألا تعلم ما هي قوانين هذا البيتِ؟!

هل نسيتها ؟!

- لا لم أنسها (ينهض) **أعاننا الله على هذا اليوم النّحْس .**

- ماذا تقول يا (صامويل) هذا اليومُ !!، هل تقصد أنَّ اليومَ الذي قبله أفضلُ منه حتّى يكونَ هذا اليوم نَحِسًا ؟!

- لا ، لم أقصد هذا ، وإنما قصدت أنّ اليومَ يحتوي زيادةً في النّحسِ، الآن هيّا يا (جميل) اذهب و حضر لنا القهوةَ من فضلك لنَعُبَّها ونمضي .

- حالًا يا صديقي العزيز .

يمضي (جميل) إلى المطبخ ليُعِدَّ القهوة ويدخّن مع صديقه اللفافتين اللتين اقتنصهما من تحت وسادة (فرهاد) فيلتقي بـ(فرهاد) و هو خارجٌ من الخلاء

فيضربُه ضربةً متوّسطة القوة على قفا رأسه فينظر إليه (فرهاد) نظرةَ ازدراء من غير أن ينبسِ كلمةً واحدةً، ويتابعُ طريقَه إلى الغرفة التي يسكنون فيها، ليَجدَ (صامويل) مُضَّجِعًا وقد وضع قدمَه اليمنى فوق رُكبَتِه اليسرى، جاعلًا اللحاف فوق بطنه وصدره ، ممسكًا بيده بهاتفه الجوّال القديم والصغيرِ .

يتجه (فرهاد) إلى سريره ويرفع الوسادةَ فلا يجدُ سيجاراتَيه اللتين خبأهما تحتها، تظهرُ عينا (صامويل) وأسنانه البيضاء بنظرة وابتسامةٍ بريئة ويقول :

- عن ماذا تبحث (فرهاد) ؟؟ هل أضعَت شيئًا ؟

- كنتُ أبحث عن سيجارتين وضعتُهما هنا تحت الوسادة .

يُخرجُ(صامويل) يده ذات الساعد العريض الأسود مقبوضةً من تحت اللحاف قائلًا :

- إنّهما في قبضتي يدي إن أردتهما فقُلَّ قبضتي وخذهما فإن فعلت تكونُ بطلًا.

يهجم (فرهاد) على قبضة (صامويل) اليمنى ليفتحها لكنّه يجدُ مقاومةً شديدةً منه لَكنّه ما لبث أن أرخى قبضتَهُ ضاحكًا فيعودُ (فرهاد) بخُفيّ حنينٍ بلا أي جدوى .

يقول في نفسه : تَظُن أنّك ذكي يا (صامويل) لا تفرح كثيرًا فهاتان اللفافتان تحتويان أردأ أنواع التبغ، يضحكُ ويحاولُ إخفاءَ أثر الخدعة الذي ظهر على صفحة وجهه .

صاحَ (فرهاد) : - **أوه ، لقد أصبحتِ الساعةُ السابعةَ والنصف يجب أن**

أذهبَ إلى العمل.

* * *

-٧-

يدخُلُ (خلدون) غرفة (أوكتاي) فيجده نائمًا وهو جالسٌ على طاولته، وبين أصابعه قلمٌ كان يكتبُ به .

- (أوكتاي)

يهمسُ (خلدون) فينتبهُ (اوكتاي) من نومه ويرفعُ رأسه من فوقِ الطاولة .

- أردتُ أن أوقِظَكَ لئلا تتأخر عن عملك يا (أوكتاي)

- شكرًا جزيلًا لك صديقي العزيز. ما رأيكُ أن أعدَّ فطورًا تركيًا شهيًّا يا (خلدون) ، سأُعِدُّ أكلةَ (جِظ بظ) التركيّة إنّها شهيّة جدًّا تتكون من الطماطم والبيض و تزداد لذّةً مع الشاي التركيّ والخبز الطازج المتطاول كما تعرف .

- سأكون مُمتنًا جدًا أخي العزيز .

يذهب (أوكتاي) ليُعدَّ الفطور ثمّ يهيئَ نفسه إلى العمل في شركة (راسبوتين)، رائحة (الجظ مظ) على طاولةِ المطبخِ البسيط تُنْعِشُ المكان بينما يتصاعدُ البخار منها متعرّجًا ومن كأسي الشاي اللتين صبَّهُما (خلدون) في تناغمٍ لذيذٍ .

- هل نجحتَ في كتابةَ المقال ؟

- نعم نجحتُ ، وشكرًا جزيلًا لك يا خلدون على المعلومات الكثيرة التي زودتني بها.

- ماذا تقول يا رجلُ ؟ لا داعيَ للشكر ! ، هذا أقل من الواجب .

يبدآن بتناول الفطور بهدوءٍ بينما النعاس لم يذهب بجميع آثاره عن عينَي (أوكتاي)

- لم تنم ليلةَ البارحةَ جيدًا ، لقد نمتَ على الطاولة (يبتسم)

- نعم، لا تهتم بهذا، علينا أن نضغط على أنفسنا حتّى تنهضَ هذه الأمة.

- صدقتَ يا (أوكتاي) إن ضَغطنا على أنفسنا و أجسادنا اليوم ، فلن تضيق عليها قبورنا حين نموت، ولولا الضغطُ الشديد فوق الفحمِ لَما استحالَ مَاسًا أخّاذًا، وكما يقول الشاعر العراقيّ :

كانَ ضغطُ الدُّجى عليه شديدًا فأتى الصبح مُؤْذِنًا بانفلاقِ

ولقد ذكّرتني همَّتُكَ بقول العالم النحويّ مشنِّعًا على التحجج بالأعذار و الخضوع للمسوِّغات التي لا تنتهي :

إذا كَانَ يؤذيك حَرُّ المَصيفِ ويُبْسُ الخَريفِ وبَرْدُ الشِّتَا

ويُلهيك حَسَن زمانُ الرَّبيع فأَخْذُكَ للعلْمِ قُلْ لِي مَتَى ؟!

- جميلٌ ، بل أخّاذٌ ما قلتَ يا خلدون.

يسألُ خلدونُ مستفسرًا (اوكتاي) ما قولك فيمن يفضّلون العمل الخيريّ – على أهميّته - على العمل الإصلاحيّ ؟بالنسبة في البلاد العربية والموبوءة ببخار القمع والطغيان تصبح الأعمال الخيرية – على أهميتها – أشبَهَ بتغذية جسد إنسان قد تعيَّشت الديدان الطفيلية في أمعائه وتمددت واستطالت حتّى أوشك على الهلاك فلا تعدو هذه الأعمال وهذا الغذاء أن يتحوّلا إلى غذاء لهذه الديدان لا للمريض الذي يستضيفها في أمعائه ، لكننا نحن في البلاد العربية نعزّي أنفسنا و نحاول أن نخدع ضمائرنا بجدوى هذه الأعمال ،

منقادين لميلنا إلى الراحةِ والخمول وإرضاء النفسِ بالغنائم الباردة من الأعمال، كالأعمال الخيريّة في البلاد القمعية، في حين أن المخرج من هذه الحال هو الإصلاح و هذه الأعمال الإصلاحية تحتاج إلى جهدٍ وصبرٍ على الأذى وتحمّل، بعكس الأعمال الخيرية التي تعطي – مع الفضل الذي فيها- شعورًا زائفًا بالتقدّم والإنجاز غير أنّها تُشبه النفخَ في قربةٍ مثقوبةٍ فأنت عندما تضيف مزيدًا من الشاي المحلّى إلى الكأس فكيفَ تتوقّعُ تخفيف حدَّة السكَّر !!؟

يشرب (أوكتاي) الفُضالة الباقيةَ من كأسه ويقول وهو يعيده إلى الطاولة :

صدقتَ يا خلدون، صدقت ...

* * *

تصعدُ (غُل بَهار) بالمصعدِ الكهربائي للمترو خارجةً باتجاه مكان عملها في الشركة في جادّة (büyük dere) في منطقة (şişli) بحجابها الوقور، وهواء الشتاء القارس لم تُكسَر حِدّتُه معَ سطوع الشمس ، بينما يبدو (فرهاد) بملامحه الأسيويّة وبعبارةٍ أدق الإيرانيّة بشعرٍ سبلٍ و أسودَ كالليلِ يبرزُه بياضُ بشرته غيرُ الشديد، يمشي بخطوات قصيرةٍ وسريعةٍ لقصر قامِته إلى الجادّة آتيًا من مكان سكنه من طَرَف منطقة(TAKSİM) الشّهيرة، بينما كان العمُّ (أردم) أولَّ الواصلين، تلاهُ (أوكتاي) ، ثُمَّ (غُل بهار) ، ثمَّ (فرهاد) فـ (درويش) قَابَلَ العمُّ (أردم) أبناءه المحبوبين بابتسامةٍ أخّاذةٍ رُسِمَت على شفتيه و رحّب بهم بصوته الأجشّ وبوجهه الجميل ذي اللحيّة البيضاء وبقلبه الطيّب، و دعا لهم اللهَ أن يسهّل أعمالَهم ، وهو يُداعب حبّاتِ سُبحته

التركوازيّة ، ثم أتخذَ مكانه في مكتبه ليتصل بالعمّ (فخر الدين) طالبًا منه كأسًا من الزيزفون لشعوره ببعض الحرارة والوَهَن، بينما ذهب (أوكتاي) ليجلِسَ في مكتبه الذي يقع في الزاوية العليا على يمين الغرفة ،وها هو يبدو بقامَتِه الطويلة نسبيًّا، و معطَفه الزيتيّ الغامق متوسط الطول، يخلَع(أوكتاي) معطفه ويعلّقه على المشجبِ خَلفَ الباب ، ويجلسُ في مكتبه وبحركةٍ سريعةٍ كالقفز بالحبل، أمسك فأرةَ الحاسوب بيمناه وأمسكَ شريطها من الطرف الآخر بِيُسراه، ورماهُ خلف شاشةَ الحاسوب الذي ضغطَ زِرَّ تشغليه لحظةَ دخوله، بينما جلستْ (غُل بهار) في مكتبها المقابل للباب مباشرةً على يسار الغرفة ، و جلَس العم (أردم) في مكتبه بينها وبين (أوكتاي) بينما كانَ (فرهاد) يدخّن - مخالفًا القانون - بجانب النافذةِ قُربَ مكتبه في يمين الغرفة، كان (درويش) على شمالِه ما زال يتثاءب ويعرك عينيه.

*　　*　　*

في مكانٍ آخر من الشركة، يأتي شَابٌ ضخمُ الجُثَّة ، بعينين ماكرتين ثعلبيَّتَين، وبشعر قصيرٍ أشقرٍ على رأس كبيرٍ، بوجهٍ يجمعُ الخبث والغباءَ والغطرسَةَ في وقتٍ واحد.

- مرحبًا ، صباح الخير .

- أهلًا وسهلًا، تفضّل .

- لديّ موعدٌ مع السيّد (راسبوتين) الآن، يجبُ أن أقابلَه.

- السيّد المدير لَمْ يأتِ بعد ، ولا أعرفُ متى سيأتي.

- كيفَ يعني أنّك لا تعرفُ متى سيأتي ؟! يبدو أنّه هنا في المكتب وأنتَ

تكذبُ عليّ.

- أستغفر الله يا أخي، من قال أنّي أكذبُ عليكَ ، ببساطة السيّد المدير غيرُ موجود، ماذا تريد أن أقولَ لك أكثر حتّى تفهَمَ ؟!

- هذا غيرُ ممكنٍ ، لقد قال تعالَ في الثامنةِ والربعِ والآن أصبحت الساعةُ الثامنةَ والنصفَ و لم يأت على حدّ زعمكَ .

- ماذا بإمكاني أن أفعل سيّدي؟! السيد المدير غير موجود ! (يرفعُ صوتَه ويمد الكلام)

- لا تفعلْ شيئاً ماذا تظنُّ أنّه يمكنك أن تفعل، أنتَ لا تستطيعُ فعلَ شيءٍ أصلًا ، أنا من سيفعل.

يَسْكُتُ مُديرُ المكتب بدون أن يبديَ اعتراضًا ولو في تعبيرات وجهِهِ.

يُخرجُ (تِكين) هاتفه الذكي، لِيَتَّصِلَ بـ (راسبوتين) فيُجيبُ (راسبوتين) بعد عدة محاولات من (تكين) :

- أهلًا (يقولها وفمه مرتخٍ ولعابهُ يسيل).

- سيّدي ، أَينَ أنتم ؟ ألم نتَّفقْ على اللقاء اليوم صباحًا من أجل العمل ؟

يجيب بنفس الأسلوب :

- قلت لهم أن يسقوا الأحصنة خمرًا بالزيت ويطعموهم حلزونًا ويدهنوهم بالعسل ، ألم يفعلوا ذلك يا (دمتري) ؟! .

- أيّ خمرٍ وأي زيتٍ ، ومن هو (دمتري) سيدي، سيّدي أنا (تكين) أتيت إليكَ البارحة من أجل العمل في شركة الغاز، يبدو أنّكم مخمورين – سيّدي

- من ليلة البارحة لا شكّ !.

- ها ! ها ! (تكين) تذكرتكَ، نفِّذ ما طلبتُهُ منكَ بدقّة، راقب موظفي القسم الذي سترأسه جيّدًا، أُريد أن أعرفَ كلَّ شاردةٍ و واردةٍ عنهم، هل فهمت ؟!

لا أريدُ لأحدٍ أن يعرفَ أسرارَ معاملاتنا واتفاقيّاتنا إنْ عرف أحدٌ بالمعاملاتِ والعقود التي تجري تحتَ الطاولةِ فستنهار شركاتي وسمعتي كانهيار بيتٍ من الرمل، هل تفهمني يا (تكين) ؟!

ولن أنسى نصيبك من الدولار، لا تقلق .

- تمامٌ سيّدي

- والآن أعطني مديرَ مكتبي لأتكلّم معه .

- حالًا سيّدي .

تفضّل ، السيّد المدير يريد أن يتكلّم معك.

- مرحبًا سيّدي المدير أهلًا وسهلًا.

- اسمع يا (سردار) خذ (تكين) ودُلَّه على مكان العمل الذي يرأسُه (أردم) عجوزُ الجِنّ ، وقلّ لـ (تكين) أنْ يُباشرَ عمله رئيسًا للقسم بتعيينٍ منّي، هل فهمتَ أم أعيد ؟

- فهمتُ ، سيّدي ، فهمتُ . وماذا أفعل بالأحصنة ؟!

- أيّةُ أحصنة أيّها الغبيّ ، فلتَدُسْكَ بحوافِرها وتخلِّصني منكَ إلى الأبد .

قال هذا صارخًا وأغلق الهاتف.

- تفضّل معي سيّد (تكين) لكي تُباشروا عملكم .

تتناغَمُ أصواتُ وقْع أحذيةِ كُلٍ من (سردار) و (تكين) السوداء على أرض

المَمَرّ الفاخر المرصوص من البلاط الأبيض اللمّاع لتنقطع هذه الأصوات عند خروجهما من مبنى المدير ذي اللون الخمريّ إلى مبنى الشركة المجاور المتواضع جدًّا من جهةِ الفخامة والأثاث ذي اللون البنيّ.

في ذلك الحين أوشكتِ الشمس أن تُجفِّفَ ماءَ أمطارِ البارحة تمامًا.

يَصِلُ (سردار) و (تكين) قسم الموظفّين الخمسة، فيدخُل (سردار) حاملًا الخبرَ الجديد ، فيقول مخاطبًا إياهم :

- من الآن فصاعدًا رئيس القسم أصبحَ (تكين) أُطلبوا مِنه ما شئتم إن عَسُرَ عليكم أمرٌ ما، واسألوه ما شئتم إذا واجهتُكم أيةُ مشكلةٍ فهو قادرٌ على حلّها، أما العمّ (أردم) فإنّ المدير أعفاه من الإدارة، وسيتابعُ عملهُ تحتَ إمرةَ السيّد (تكين) .

تعترض (غول بهار) :

- ولكن ! ...

- السيّد (راسبوتين) لا يُحب الاعتراضاتِ هيّا إلى عملكم ولا تضيعوا وقتي رجاءً.

يحتجُّ (أوكتاي):

- ماذا تقولُ أيّها الأخرقُ، وكيفَ تعزلون مَن خَدمَكم طولَ ثلاثينَ سنَةً، كيفُ تجردونه من منصبه في الإدارة وهو أعلمُنا وأكثرنا خبرةً، وتأتونَ بشابٍّ غِرٍّ لا يدري شيئًا مكانَه ؟!!

ويقاطِعهُ العمّ (أردم) قائلًا :

- أهلًا بكَ سيّد (تكين) أهلًا بك .

يعطي العمّ (أردم) مكانه لـ (تكين) بكل هدوءٍ ويذهبُ للبحثِ عن كُرسيٍّ للمكتبِ الذي يجاورُ (درويشَ) ويقابل (غول بهار) ، بينما أصابَ بلور النافذة التي خلفَ (أوكتاي) الغبشُ نتيجةَ وقوفِ (أوكتاي) محتجًا وهو يزفر بغضبٍ على هذا الجَديد الطارئ .

ينظر الموظَّفون الخمسة إلى بعضهم بعضًا بدَهشةٍ وتعجُّبٍ شديدين وعيونهم تسأل الكثيرَ من الأسئلةِ من هو (تكين) هذا وكيف يُمكنُ أنْ يصبِحَ رئيسًا للقسم منذ أول خُطوةٍ خطاها داخلَ الشركَةِ ، لا بُدَّ أنَّ في الأمر سرًّا ، فمعلومٌ أنَّ (راسبوتين) لا يعطِف على أحدٍ ولو كانَتْ أمَّه ولا يثِقُ بأحدٍ ولو كان صديقَ الطفولةِ، إذن لا بُدَّ أنَّه مَدسوسٌ مِن قِبلَه لغاياتٍ في نفسه !! هكذا فكّروا لكن من دون أن يتفوَّهوا بكلمةٍ واحدةٍ في حضرة (تِكين) .

* * *

استيقظ (راسبوتين) منذ ربع ساعةٍ لكنَّه لا يزال يتململُ في فراشه، يبدو ملتحفًا بأغطيةٍ كثيرة و زائدةٍ عن الحاجةِ، لأنَّ البردَ شديدٌ لكنَّه ليس إلى درجةِ أن يلتحفَ الشخصُ بأربعِ لحافاتٍ و غطاءَين من الصوف!

يضطربُّ الإحساسُ عند (راسبوتين) فلا يدري لماذا يشعرُ بخفَّةِ وزنه على السرير معَ أنَّه مثقَلٌ بالتعبِ والرَهَق فكان يتصوَّرُ أنّه لو استلقى على سرير لَتفسَّخَت قوائمُه الأربعةُ ، لكنَّه في ذات الوقتِ يَشعُر بالتلاشي وانعدام

الوزن كأنّه الغازُ الذي يستثمره في بعض شركاته.

يرفعُ (راسبوتين) ظهرَه عن فراشه وقد امتلأ عَرَقًا وعن وسادتهِ وقد امتلأت لعابًا ويضعُ قدميه على الأرض المكسوَّةِ بالسُّجاد الفارسيّ وينظرُ بانشداهٍ بعيون مُحمرَّةٍ منتفخةٍ، ينظرُ وكأنّه لا يرى، و يَشعُرُ قليلًا لكن دون أن يُحِسَّ، يصرخُ لِخدَمِ القصرِ الباذخِ، فيبطئون عليه فَينهضُ بدافعٍ من تأثيرِ الغثيان الذي ينغِّصه، ثمَّ لا يلبثُ أن تُخرِجَ معدتهُ على دفعاتٍ عنيفةٍ ما أدخلَ فيها حتّى لطّخت السجّاد وأخرجَت هضيمَ الطعامِ والشرابِ من فمه ناهيكَ عن أنفه وصارَ يُصدرُ أصواتًا كَمن يختنقُ أو تُنزَعُ روحهُ .

- سيّدي سمعتكَ تنادي فهلْ كنتَ تريدُ شيئًا ؟

- ألا ترونَ حالي ؟ نَظِّفوا هذه الغرفَةَ بسرعةٍ هيّا ، قلتُ بسرعة تحرّكوا .

يخرجُ (راسبوتين) من غرفة نومه إلى الصالة ليَبدوَ مشجبُ قرونِ الوعل المعلَّقُ على الحائطِ يُجِدُّ النظَر إلى (السماور) التركيّ ذي اللون الذهبيّ الذي نُحِتَ على شكلِ خنزيرٍ، ومُلِئَ بدلَ الشايِ خمرًا و وُضِعَ على رفٍّ نصفِ دائريّ من المَرْمَرِ النقيّ.

فيأمرُ أحدَ الخَدَمِ بأنْ يُعِدَّ له القهوةَ التركيّة التي دأبَ على شُربِها كُلَّما أرادَ أنْ يَصْحُوَ مِن سُكْرِهِ لكن ليزداد سُكرًا و خبالًا ويذهبُ إلى الحَمَّامِ ليُنَظِّف نفسَه مِن آثار القيءِ وليَغتَسِلَ ويبدِّلَ ثيابَه .

يصعدُ (راسبوتين) طابقينِ آخرينِ من بيته الذي هو كالقصر لِيأخُذَ لنفسِه موقِعًا عاليًا من أحد أدوار القصر ، مُطلًا على مضيق البوسفور ويجلِسُ على كُرسيٍّ هزَّازٍ ويحتسي القهوةَ التركيّةَ على رشَفاتٍ وقد لَبِسَ طَقمًا أسودًا

وقميصًا أبيضًا بينما يرقُبُ البحرَ والسُفُنَ والضَّفةَ الأُخرى مِن المضيقِ، يرِن هاتِفُه الجوّال ذي اللّون الذهبيّ والمكسوِّ باللؤلؤ المُبهِرِ، فتُضِيءُ الشاشةُ باسمِ (تِكين) ، يقولَ مُتَمْتِمًا لِنرى ماذا يريدُ مِنّي هذا الأبلهُ منذُ الصبَاح ؟!

- سيّدي، مرحبًا سيّدي .

- ألا تفهمُ أنَّ الوقتَ ما يزالُ باكرًا ، كيفَ تتصلُ بي في هذا الوقتِ من الصبَاح ؟

- سيّدي لقد أصبحتِ الساعةُ الحاديةَ عشرةَ ويكاد ينتصف اليوم فلم أكُن أعتقدُ أنّ هذا الوقتَ مبكِّرٌ .

- وما رأيكُ أنْ تعلِّمَني متى يكونُ الوقتُ مبكّرًا ومتى لا يكون ؟! هيّا قل ما لديكَ ولا تُكثِرِ الكلامَ !.

- سيّدي لقد بدأتُ بعملي مُديرًا للقسمِ الذي عيَّنتني فيه ويَظهَرُ على بعضِ الموظّفينَ بعضُ التململُ مِن هذا القرار .

- التّمَلمُلُ إذنْ ، أنا أصلًا أحرِصُ على كلِّ شيءٍ إلا أنْ يصلَ الأمرُ بالكلاب إلى التململ، (يبتسمُ ساخرًا ، ثمَّ يصرُخُ) ولِماذا عَيَّنتُكَ مديرًا لذلك القسمِ ؟ أَلِكي تَنقلُ لي الأخبارَ التّافِهةَ ؟! أنتَ تصرَّفْ معهمْ و اسْحَق تملمُلَهم، أو اتركهم ولا تقلْ لهم شيئًا، فأنا قادمٌ إلى هذه الشركة الملعونة .

*　　*　　*

يرن جرس استراحة الغداء في الواحدة ظهرًا فيخرجُ الموظفون من جميع الأقسام إلى مطعم الشركة الذي يَرْبِضُ في الطابق الثالث والثلاثين والأخير ، ينطلقُ (فرهاد) إلى المطعم بعد أن أحرقَ لفافةً أخرى من التبغ ، فيلتقطُ

سكينًا وشوكةً وملعقةً وصحنًا فارغًا ويضعهم على صينيّته و يأخذُ أطباقَ الطَّعَامِ الثلاثةِ من مطعمِ الشركة ، طبقًا من الشوربة طبقًا من حساء الخضار و طبقًا من الأرز ، و يذهب بهم إلى الطاولة ليجلسَ ويأكلَ .

يأكلُ (فرهاد) و يبدو على وجهه الإرهاق و السواد و الشيخوخَة و الذهول ، يبدو و كأنّه أكبر من عمرُه ، ليقطعَ ذهوله و طعامَه صديقُه أو لِنَقل زبونُه (إسلام خان) :

- السلام عليكم يا (فرهاد) كيف حالك ؟

- وعليك السلام يا (إسلام خان) الحمد لله ، و كيف حالك أنت ؟! هل أنت في مزاجٍ جيّد ؟

- أوه ، أنا في مزاج جيّدٍ جدًا ،عالٍ ، و فوق العادة ، كل ذلك بفضلك يا صديقي الأوفى (فرهاد) ، لكني أريد أن أطلب منك طلبًا ، أريدُ منك المزيد من (مسحوق السعادة) ، لأن الكميّة التي أعطيتني إياها في المرة السابقة نفدت بسرعة و أكاد أجن و أرتطمُ بالسقف من شدة الحاجة إلى هذه المادة .

- قلت لي (مسحوق السعادة) !؟ (يضحك ويقول) (مسحوق السعادة) ، حسنًا ، اليوم ، و بعد انتهاء الدوام في الساعة التاسعة تمامًا ، ألتقيك في جادة (بغداد) في قاضي كوي[٤] ما رأيك ؟؟

لا أعرفُ هناك دائمًا شيءٌ يشدنّي إلى تلك الجادة . ثم نذهب منها إلى مطعم (حضرموت اليمن) لأطعمك ما شئت من الأطعمة الفارسية التي تحبّها من

[٤] ( ) منطقة في اسطنبول الأسيوية وتعني قرية القاضي .

الكباب بأنواعه : بورك، كوبيده، شيشلِك، سلطاني و الأرز بأنواعه الشهية واليخنة والخضار الذي يقدَّم معه ، و سأطلب لك حساء (الأش) الشهي ، لكن اسمع ، مسحوق السعادة هذا الذي تريده للمرة العاشرة ، قد ارتفع سعره ، لأننا نواجه مخاطر في التهريب أودت بحياة بعض أصدقائنا ، لذلك فإنّي أريد منك هذه المرة ثلاثةَ آلاف دولار لكل عشرين غرامًا من (مسحوق السعادة) (يقولها باحتقار) .

- ثلاثة آلاف دولار !! ، هذا كثيرٌ ، كثيرٌ جدًا ، يا سيّدي ، لو تنظر في تخفيض السعر قليلًا .

- لا تجادلني و لا تساومني ، إن كنت لا تريد فنقودُك معَك ، و (مسحوق السعادة) مع أصحابه .

- أرجوك يا سيّدي، لقد بعتُ كلَّ ما أستطيع بيعه ، حتّى حلية زوجتي .

- أ أنت لا تفهم ؟! يصيح (فرهاد) وسطَ ضجيج الأطباق والملاعق والصحون .

- بلى ، بلى ، أفهم يا سيدي ، ولكن ...

- من غير و لكن ، إن كنت تريد هذا المسحوق اللعين فتعال كما أخبرتك في الساعة التاسعة ، في جادة (بغداد) ، في مطعم (حضرموت اليمن) ، دون أن تنسى أن تحضر ثلاثَة آلاف دولار ، عَدًّا و نقدًا ، إن تنقص دولارًا واحدًا ، فلن أعطيَك إلا مخزنًا من الرصاص أفرّغه في رأسك ، هل فهمت ؟

- نعم سيدي ، لقد فهمت .

- إلى اللقاء ، اذهب .

- مع السلامة سيدي ، إلى اللقاء .

يقوم (فرهاد) متأففًا ضجرًا عن الطاولة ليحتسي كأسًا من الشاي .

* * *

يعود الموظفون الخمسة إلى أعمالهم بعد الاستراحة، مستنكرين يتهامسون فيما بينهم عن رئيس قسمهم الجديد (تكين) يقول العمّ (أردم) :

- أنا لا شيء لديّ لأخسرَه ، فما معنى أن أكون رئيسًا لقسمٍ في شركة يملكها طاغية ، وبعد ثلاث سنوات سأُحال – لا محالةَ- إلى التقاعد ، وهوّنوا عليكم لا شيء يستحقُّ غضبكم فأنا أعرف (راسبوتين) جيّدًا ، فإنّه لو أراد أحد طعنه في قلبه لكُسِرَ السكين دون النفاذ في جسده لأنه قلبه من صخر.

يصرخ (أوكتاي) :

هذا لا يمكنُ أن يحصلَ ، كيف هذا ؟! هل نحن نعمل في شركةٍ أم نعيشُ في غابةٍ ؟!

- يعقّب (درويش) :

لا بأسَ يا أخي ، و ماذا حدث ؟ لا مشكلةَ أبدًا ، السيّد مالك الشركة (راسبوتين) أراد أن يترأس هذا الشخص القسم ، والشركة شركته ، و هو حر في التصرف فيها كيف يشاء ؟

فأين المشكلةُ في هذا ؟

يرد (أوكتاي) مستهزئًا :

أعوذ بالله مشكلة ، لا مشكلةَ إطلاقًا ، من ذكر كلمة (مشكلة) إنّها الكارثةُ

بعينها .

فيعقّب (درويش) :

- أنت تضخّم الأمور يا (أوكتاي) .

فتقاطعهم (غول بهار) :

لا ، ليس (راسبوتين) على حقٍّ ، فإنَّه عِوَضًا من أن يُكرم عمَّنا (اردم) مقابلَ خدمته الطويلة في الشركة مدّةَ ثلاثينَ سنةً ، قام بتوظيف شابٍ غِرٍّ مكانه ، و لكنه لم ينتظره أن يصل إلى سنّ التقاعد بل عزله، فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟! وتلمح في محيّا العم (أردم) أسًى شديدًا فقالت في نفسها :

هل صحيحٌ أنَّ للمسنين روحًا كئيبةً ؟ أم أنَّ مصائبَ الحياة نالت من عزائمهم ؟!

هل هم مطبوعون على القناعة ؟ أم أنَّ توحُّش الحياة لوَّى أذرعتهم و شلَّ أرواحهم ؟!

هل هم لا يحبّون الحياة أم أنّ الحياة أعطتهم النظَّارات المناسبة لرؤيتها على حقيقتها ؟!

فعقَّبَ العمّ (أردم) :

- لا عليكم يا أبنائي ، لا عليكم سيدبرّها الله ، سيدبرها الله .

صاح الجميع عدا (فرهاد) :

- و نعم بالله عم (أردم) و نعم بالله .

يأتي (راسبوتين) فيبدو رأسُه الذي لا يستطيع أحدٌ أن يميّز بينه وبين وجهه لانعدام الحدود بينهما إثر حلقه لجميع شعر رأسه المتبقي و لشعر وجهه لحيةً وشاربًا ، يدخل القسم (c) ليذهبَ إلى غرفة الموظفين الخمسة الذين أصبحوا ستة مع مديرهم الجديد ، فتهبّ عاصفة من الهواء الحامل لروائح العِطر الفرنسيّ الحادِّ و المُختَلطِ بروائح سيجاره النفاذ فأصاب الموظفين في الممر بنوبة سعال مريعة ، فتوقّفَ برهةً ، ثمَّ نسيَ لماذا أتى إلى هذا القسم فأطرق مليًّا ثمَّ حكَّ مُؤخَّرَ رأسه بأصبع خُنصره ، ثمّ سأل أحدَ الموظَّفين المارين .

- أين هو مكتب (تكين) ؟ فأجابه – لا أعرف سيدي أين ، أنا لا أعرف هذا الاسم ، لأول مرة أسمع به ، فأصبح يدخل على غرف المكاتب مكتبًا مكتبًا ليتفاجأَ الموظفون به و بهذه الحالة المضطربة التي يدخل بها مديرهم ، حتّى وصلَ مكتبَ (تكين) و دخَل محدثًا جلبَةً كبيرة و صرخ مادًّا صوته :

- (تكين) ماذا هناك ؟ هل من أحدٍ يعترضُ على ترؤّسك هذا القسم ؟

(وصرخ) **هل من اعتراض ؟!!**

(فهمَّ اوكتاي بالردّ قبل أن يجيب العم أردم بسرعة) :

- أيُّ اعتراض لا أحدَ يعترض هنا ، نحن طوع أمركَ سيد (راسبوتين) .

- (أهَا)، هكذا أريدكم ، فأنا لا وقت لديّ للتفاهات .

- حسنًا سيد (راسبوتين) كل شيء سيكون كما تريد أنت اذهب إلى مكتبك وارتح قليلًا من فضلك .

- حسنًا .

و خَرجَ (راسبوتين) بغضبٍ شديدًا ماضيًا إلى مكتبه وعروقُ رأسه التي في صِدغَيه لترى من بعيد من أثر الغضب المريع الذي أصابه ، وليترُكَ أُصُصَ النبات الأخضر تهتزّ لشدَّة صراخه واضطرابه وفي المكتب بينما هو جالسٌ و يدور في كرسيّه ، و يدورُ ، ويدورُ ، و يدورُ ، يدق مساعدُه الشخصي الباب ، فيقول له :

- ادخل

- سيدي ، السيّد (ماتزوف) يريد أن يتحدَّث إليكم ، فماذا أقول له ؟!

- أعطني إياهُ ، أعطني إياهُ ، و قم بشحن موقدي بقرون الأيائل املأه كله ، أليس هذا أفضل من أن يحرقوه هم ؟!

، (يضحك مستهزأً) .

- حسنًا سيّدي ، حالًا .

- (ألو) ، أهلا بـ (ماتزوف) الغالي ، أفشل لاعب قمار ، و أفشَل تاجر بناء في عموم تركيا و روسيا والشرق الأوسط ، أهلا بك ، ماذا تفعل أيّها الخبيث ؟

- ماذا أفعل برأيك ؟ أصطاد بعض السمك على بحر جسر البوسفور ، ه ه ه هاهاها ، أردتُ أن أُذكِّرَكَ بموعدنا مساءً في الحانة ، لا تتأخر ، أو تنسى كما فعلت قبل يومين .

- لا ، لا ، لن أتأخر ، انتظروني .

- نعم نحن في انتظارك ، لكن هيّا قل لي ، كيفَ خسرت البارحة خمس ملايين من الدولارات في ربع ساعة أهلا أخبرتني (يضحك) .

- آه ، صحيح ، خمسة ملايين من الدولارات ليست بأمر ذي قيمة بالنسبة إلى ثري مثلي هل أنا على حق ، عزيزي (ماتزوف) ؟

- نعم ، طبعًا

- ثمَّ إنك إنْ أردت التوبة فعليك أن تخطئ أولاً ، (يبتسم بخبث) ، أليس كذلك يا (ماتزوف) ؟

- بلى ، يا صديقي ، (راسبوتين) أنت محقّ ، الآن لا تنس أن تأتي مساءً إلى حانة (الدبّ القبطيّ) لا تتأخر ، وبالمناسبة ، هنالك خصم أميركي دَسِم سيأتي اليوم وهو من أثرى أثرياء العالم ، احرص على أن لا تتأخر كي لا تفوتك الغنائم

- هههههه و من هذا الأمريكي الذي يفكّر في أن ينازعَني ملكي ، اعلم يا (ماتزوف) أنَّ حصيرةً واحدةً من الممكن أن تَسَعَ عشرةَ دراويش بينما لا يُمكن أن تتَّسع الأرضُ لمِلِكَين .

- هذا صحيح يا (راسبو) هذا صحيح .

* * *

-٨-

بعد مُضِيّ شهر من الزمان :

تكتسي اسطنبول حُلَلَها البيضاء النقيّة الناصعة ، إنَّه الثلج ، يتساقط بكثافةٍ صباحَ هذا اليوم ، يتساقط بلطفٍ شديدٍ على رؤوس البيوت الخشبية ذات الأسقف القرميدية التي تشبه القُبَّعات ، يتساقط على المساجد العثمانية القديمة ، على مآذنها و القِباب كَما يلوّن الرسَّام لوحته ، يتساقط على ويبني نفسه على الأرصفة ، كما يَرُشُّ بائع المعجنات التركية السكَّر المطحون على فطائر الحلوى التي تحاول تدفئةَ المارين من جانب أفرانها برائحتها الزكية الأخاذة ، تتساقط الثلوج على طيور النورسِ قرب أُسْكُدار ، والفاتح ، وبُرج غَلَطَة القديم ، تُحاول هذه الطيور التنكّر والاختباء بلون الثلج المنسوج على أسطحة المنازل والمساجد العثمانية ، لكنها ، عبثًا ، تحاولُ لأنّ مَناقِرها و أقدامها الصفراوات وأجنحتها المُرْبَدَّةَ ، و تغريدَها الذي يشبه صوت بكاء الرضّع من أطفال بني آدم تفضحُها ، وتدل على جمالها ، وجمال الصورة الإلهية البديعة ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

ظهرًا يدخل (راسبوتين) على غرفة الموظفين الخمسة ومديرهم المفروض حديثًا ، ويقول لهم ، - **إنَّ عطلةَ يوم ونصف من العمل طويلة على الموظفين ، و هذا الأمر يؤدّي إلى مللهم و ضجرهم وهم بدون عمل ، و لا أريد أن تتأثر ثروتي بالأزمة الاقتصادية التي تضرب هذا البلد ، لذلك اكتب يا (تكين) قرارًا بتقليص العطلة من يومٍ ونصف إلى يوم واحدٍ فقط ، ليبقى**

لكم يوم الأحد بكامله لعطلتكم .

تنتفض (غول بهار) و تقول:

- أيَّ عملٍ هذا تقومُ به يا سيّد (راسبوتين) نحن هنا موظفون بسيطون و لا نقصّر في أعمالنا فلماذا تستغلُّنا بهذا الشكل ؟!

- أنا لا أستغلُّكم ، أنا أُحقق مصالحي فقط ، من قال إنّني أستغلُّكم ؟! ، أنا فقط أحاول الحفاظ على ثروتي من أن يصيبها الضرر أو النقص وسطَ هذه الأزمات التي تضرب بلدكم ، فمن لم يعجبه هذا القرار ، فبإمكانه البحث عن عملٍ آخر .

- ولكن يا سيدي أنا رجلٌ كبير ، و لا أكاد أستطيع العمل لظروفي الصحيّة كما تعلم .

- كفى، ألا يكفي أنّي سمحت لك بالعمل عندي ، هل تريد أن أفتح لك دارًا للعجزة في شركتي ؟! تكلَّم . (يصيح راسبوتين) ، هيّا يا (تكين) ألم تنتهِ بعد ، ماذا حصل لك ؟

- تفضل ، سيّدي انتهيت ، توقيعَكم لو سمحت .

يمرر (راسبوتين) بالقلم على الورقة كمن يجرجر قدميه على الأرض ، ثمّ يقول :

- هيّا يا (تكين) قُم بنشر القرار في كل أروقة الشركة ، هيّا ، ماذا تنتظر ؟!

- حالًا ، سيديّ .

- و اكتب ملاحظةً في آخر القرار أنَّ من لديه اعتراضٌ أو امتعاضٌ فليترك الشركة فلا وقت لديّ أضيعه ، هل فهمتما قلته لك (تكين) ؟!

- **أمرك سيدي ، نعم فهمت .** (ثُمَّ يخرجُ راسبوتين مسرعًا)

ينظرُ زملاء العمل الخمسة إلى بعضهم بعضًا دون أن يرجع بعضهم إلى بعضٍ القول من شدة الاندهاش مما حصل ، فيصيح (فرهاد) :

- **أنا لا يهمني الأمرُ ، فلو جعل ساعات العمل أربعًا وعشرين ساعةً في السبعةِ أيّام فلا يهمنّي ، فأنا لا يتكلّم أحد معي هنا كما ترون .**

فيقول (العم أردم) :

- **هذا ليس بشيءٍ يا أبنائي ، فأنا من أعرف (راسبوتين) حقّ المعرفة إنَّ له طبعًا حادًا وقلبًا قاسيًا وذاكرةً كذاكرة السناجب .**

فيقول درويش مخفيًا امتعاضَه :

- **على أيّة حالٍ ، عملٌ بعطلةِ يومٌ خير ، من عطلةٌ بغير عمل .**

فيردف (أوكتاي) :

- **صحيح أن العملَ خيرٌ من البطالة ، لكن ليس من حقّه أن يظلمنا هكذا ، هو يريد من ثلاثة آلاف موظّف أن يعملوا عنده ست ساعات مجانًا ، و هذا أمر دون علم وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل ، كيف يحصل هذا ؟**

(وتعقّب غول بهار) :

- **وأنا أُحاول إكمال تحصيليَ العلميّ في فترة العطلة هذه ، كيف يفعل هذا ، لا أعرف ، أُفٍ له ، ولشركتِه .**

يردف (درويش) :

علينا بالصبر ، فالصبر علاجٌ لكل مشاكل الحياة ، كما أنّه مفتاح الفرج ، أليس كذلك ، (عمُّ أردم) ؟!

- بلى ، يا بنيّ بلى .

(يقول أوكتاي في نفسه) :

أيُّ صبرٍ هذا الذي يقبل بالظلم ، بل أيُّ دين أو مذهبٍ هذا يقولُ بالرضى بالظلم ؟!

(يقطع تكين نِقاشَهم هذا بقوله) :

- هيّا كفُّوا عن هذا الهراء والتفتوا إلى أعمالكم ، يكفي ما أضعتم من وقت ، هيّا .

* * *

www.alukah.net
شبكة الألوكة

و بعد ثلاثة أشهرٍ ...

ها هو الربيعُ قد حلّ في اسطنبول ، و فيه تزدهي اسطنبولُ بجمالها ، وتزدان بسِحرها الأخَّاذ ، فتذوب الثلوج ، و تدهامُّ المروج ، و تنتعشُ النوارسُ و البطّ في بحر مرمرة الآسر ، و تذوب الثلوج و تتدفَّقُ مياهًا عذبةً رقراقةً من ينابيع اسطنبول و في جداولها الأنيقة تُروِّي قبورَ الشهداء العثمانيين في امتداد ثلاث قاراتٍ وسبعِ قرونٍ ، و تروِّي حقولَ الزهرة العثمانية ، حقول زهور التوليب ، على حينَ تُزيّن أشجار السجريق [٥] الزهرية جادَّات اسطنبول وشوارعها الطويلة والنظيفة على امتدادها لتلتقيَ في الأفق ، و تضمّخُ أُصُص الأزهار العَطِرة من نوافذِ البيوتِ شوارعَ اسطنبولَ بأريجها المختلط بروائح عطور الغسيل الجافّ المنشور على شرفات البيوت التي يزيّنها العلم العثماني الأحمر القاني ، عندما تستقبلكُ اسكودار بروائح سَمكِها الطازج المشوي ، و بحر مرمرة الرائق البهيّ ، ويستقبلك جامع السلطان الأحمد ومسجد آيا صوفيا بروائح التوابل المختلِفة المنبعثة من السوق المغطى المصرّي .

و حار الشعراء في وصفِ هذه المدينة الفاتنة الآسِرة فهذا الشاعر الإسلامي أحمد باكثير يقول في سحرها :

وكَمْ بالأسِتانَةَ مِنْ مَعَانٍ أثارتْ في حَنَايايَ الشُّجُونَا

---

[٥] ( ) أو ما يدعى شجرةُ يهوذا .

معانٍ ليس تَعْدِلُهَا مَعانٍ تُفَجِّرُ فِي الفُؤادِ هُدًى مبينَا
مآثرُ مِن بنيْ عثمانَ شادتْ مِنَ الدينِ الحنيفِ بِها حُصونَا
تزيدُ الكافرينَ أسًى وغيظًا إذا نظروا وترضي المُؤمنينَا
جوامعُ مشمخراتٌ حسانٌ خوالدُ من بناءِ الخالدينَا
تراها من بعيدٍ كالرواسي فإن دوّين أقْرَرْنَ العيونَا
بفنٍ عبقريّ مستمدٍ من الإسلام يَهدي الحائرينَا
كأن قبابَها خُوذاتِ صُلبٍ لَمَعْنَ على رُؤوسِ مجاهدينَا
ومَن ينظر مآذنَها يجدْهَا رِماحًا في صدورُ الكافرينَا

و ها هو شوقي يصفُ جسر البوسفور المهلهل آنذاك فيصفه مخاطبًا السلطان العثماني بكثيرٍ من الدُعابة :

أَميرَ المُؤمِنينَ رَأَيتُ جِسرًا أَمُرُّ عَلى الصِراطِ وَلا عَلَيهِ
لَهُ خَشَبٌ يَجوعُ السوسُ فيهِ وَتَمضي الفَأرُ لا تَأوي إِلَيهِ
وَلا يَتَكَلَّفُ المِنشارُ فيهِ سِوى مَرِّ الفَطيمِ بِساعِدَيهِ
وَكَم قَد جاهَدَ الحَيوانُ فيهِ وَخَلَّفَ في الهَزيمَةِ حافِرَيهِ
وَأَسمَجُ مِنهُ في عَيني جُباةٌ تَراهُم وَسطَهُ وَبِجانِبَيهِ

إذا لاقَيتَ واحِدَهُم تَصَدّى كَعِفريتٍ يُشيرُ بِراحَتَيهِ

وَيَمشي الصَدرُ [٦] فيهِ كُلَّ يَومٍ بِمَوكِبِهِ السَنِيِّ وَحارِسَيهِ

وَلَكِن لا يَمُرُّ عَلَيهِ إِلّا كَما مَرَّت يَداهُ بِعارِضَيهِ

وَمِن عَجَبٍ هُوَ الجِسرُ المُعَلّى عَلى البُسفورِ يَجمَعُ شاطِئَيهِ

أَلَيسَ مِنَ العَجائِبِ أَنَّ مِثلي يَرى ما قَلَّ مُمتَنِعاً عَلَيهِ

وَتُؤخَذُ بِاسمِهِ الدُنيا جَميعاً وَما مِن ذاكَ شَيءٌ في يَدَيهِ

تُذكِّر اسطنبول النَّاس بطفولتهم ، وخاصةً العربَ منهم ، فهي عاصمة الخلافة ، و دار السعادة ، و مهوى الأفئدة ، و مَطمَحُ الأبصار ، عندما زرتُ اسطنبول شعرتُ وكأنّي زُرت الجنّة التي حدثوني عنها طويلًا ، شعرتُ وكأنّي زرتُ جدتي و حكاياها عن عدل السلطان عبد الحميد و عظمته وذكائه و روعته ، عن بعض الكلمات العثمانية التركية التي بقيت تُزيّن الكثير من اللهجات العربية إلى الآن ، عندما أتيت إلى اسطنبول شعرتُ و كأنني عدتُ إلى جدتيّ ولكنّي وجدتّها بعمر الثلاثة والعشرين ، تزدادُ بهاءً وألْقًا ، يجري ماء الحياة في وجهها الطاهرِ المبارك ، كما تجري حبّات سُبحتها بعد الصلاة . ولكنّ الحقيقة المأساوية أن العرب أصبحوا وأغلبُ المسلمين بعد انفراط عقد الخلافة ، أضيعَ وأضَّلَّ من رجلٍ سكرانٍ أعمًى تائهٍ في مقبرةٍ في ليلةٍ مطيرةٍ .

---

[٦] ( ) الصدر الأعظم

* * *

يصل خبرٌ جديدٌ إلى الزملاء الخمسة ، لقد ازدادت مُدةُ العمل ساعةً في كل يومٍ وبدون زيادة الأجرة، فيهتَمُّ الزملاءُ لهذا الخبر المزعج اهتمامًا شديدًا ، و بدا عليهم الضجر بشدةٍ ، فيصيح أحدهم :

- أهذا عملٌ أم استعباد ؟ لا أعرف .

ويصيح الآخر :

- ما هذه اللعنة التي ابتلينا بها ، القرار تلو القرار ، و الأمور تزداد سوءًا ، هيّا بنا نشتكي إلى وزارة العمل ، هذه الحال لا يُمكِن أن يُسكَتَ عنها البتَّةَ .

يعقّب آخر :

- إيهٍ ، ثم ماذا بعد أن تشتكي إلى وزارة العمل ، ماذا ستفعل ؟! هل تظنُّ أنّ (راسبوتين) سيتركنا ساعةً واحدةً في شركته الملعونة ، سيطردنا يا فهمانُ بالعشرات وهذا أهون عليه من شرب برميل من الخمر كما تعلم .

- آهٍ ، آهٍ ، لا بديل أمامنا إمّا الرضى بهذه الحال أو البقاء بغير عمل .

يقترح (أوكتاي) الاستقالة الجماعية من هذا الوظيفة ذات الظروف المجحفة الظالمة فيقول (درويش) :

- أستقيل من العمل ! هذا آخر شيءٍ أُفكِّر فيه ، أن أستقيل من العمل ، لديّ أمّ وحيدة يجب أن أعيلها و أرعاها ، لا يمكنني التفكير في الاستقالة أصلًا .

فيعقبّ (العمّ أردم) :

- بقي لي ثلاثُ سنواتٍ و أحال إلى التقاعد ، وحتّى ذلك الحين ، يجب عليّ أن أساعد ابني (مراد) فهو سيُرزَق بحفيدٍ آخرَ لي يكون تسليةً لحفيدنا الأول (إلبر) ، فمرتَّبه لا يكفيه هو وعائلته لهذا يجب أن أبقى في هذه الوظيفة .

أمَّا (غول بهار) فكّرت مليًّا ثم فقالت :

- إيهِ ، ثمَّ ماذا بعدَ أن نستقيل من الوظيفة ؟ ماذا يُمكن أن يحصل ، كيف سأؤمن

عملًا غيرها ، وإلى أن أجد عملًا آخر ، هل سأبقى هكذا بغير وظيفة ، لا ، لا يمكن أن يحدث هذا .

فردَّ (أوكتاي) :

- إذا أردنا التغيير فلا بُدَّ أن نهتمَّ بالهدف الذي سنصل إليه أمّا إذا فكرنا بالمعوقات ، فلن نتحرَّك مترًا واحدًا ، فيجب علينا أن نهتم بالفرص التي تحتاج إلى تنقيب ، يجب أن نبحث عن مواردنا و مزايانا لنستثمرها بعيدًا عن استغلال المجرمين الذين لا يرحمون ، وعلينا أن ننهض بالواقع ، وليس أن نخضعَ له ، أو أنْ نَقَعَ مَعه .

- لا ، لا ، ماذا تقول يا (أوكتاي) أنت تعيش في أحلامك وخيالاتك التي سببتها لك كُتبكَ العقيمة ، من سيضمن لي الحصول على عمل جديد ؟!

أجب ، إذا كان لا يوجد أحدٌ يضمن لي العثور على عمل جديد فلن أترك وظيفتي القديمة ، أنت إن أردت أن تترك عمله فاتركه ، و أرِنا كيف بإمكانك الحصول على عمل آخر أحسنَ ، أمَّا أنا فلن أترك هذا العمل رغم

الاستغلال والظلم الفادح الذي أواجهه .

- سَتريَنَ كيفَ بإمكاني العثور على عمل جديد – أختي - غول بهار ستيرين !.

يدخل (تكين) مدير المكتب إلى مكتب الزملاء مُزعجًا مغضبًا فيسكت الكلُّ، لربما عرضَ لتأنيب من (راسبوتين) على أيّة حال يبدو (تكين) صاحبُ الجثّة الضخمة والجسد الفارع والرأس الكبير الأصلع والفارغ ، غير مكترثٍ لما حشاه (راسبوتين) في أذنيه من صنوف البذاءات ، يبدو أنّه اعتاد على ذلك ، كيف لا يعتاد ؟ ، وهو أشبه بعبدٍ ، بل هو عبدُ (راسبوتين) المطيع الذي يسبّح بحمده ، ولا يعصي له أمرًا ، يَأتي وقت استراحةِ الغداء ، فيخرج (فرهاد) و (درويش) أولًا صاعدين إلى المطعم فيضع (فرهاد) ساعدَه على رقبة وعاتق (درويش) قائلًا له :

- ما رأيك أن أعطيكَ شيئًا يُزيل همومَكَ الكثيرة وتوتّركَ الشديد هذا ؟ما رأيك ؟ سأعطيك إياه مجانًا في المرّة الأولى لوجه الله تعالى ، ما أريدُ إلا سعادتك ماذا قلت ؟

- هه ، شيئًا يزيل كلَّ همومي و يجلبُ سعادتي ! ما هذا الشيء قل ، جزاكَ الله بما تستحقّ .

- هاااا ، إنّه مسحوق السعادة .

- ماذا يعني هذا مسحوق السعادة ؟! هل تقصد المخدِّرَات ؟!! هل تريدُ أن تعطيَني المخدِّرَات ؟! (فيصرخ في المطعم) :

- يا ناسُ ، يا عالمُ ، هذا الشخص يريدُ أن يبي...

قبل أنْ يُكمِّمَ (فرهاد) فمه بيديه و يكتم صوته ويهمس بصوت خافت له :

- ما بك (درويش) هل جُننت ؟ ، هل من الممكن أن تعتقد أنَّي تاجر مخدِّرات – لا سمح الله - ؟ هل من الممكن أن يحدث ذلك ؟! أنا كنت أمزح معك فقط ، كنت أريد أن أعرِّفكَ إلى ديانتي ، و انظر ، انظر ، ماذا طبخوا اليوم في المطعم حساء لحم الغنم الدَّسِم ، و بجانبه المعكرونة و السلطة التركيّة الرائعة ، هيّا بنّا نأخذ وجْبَتَيْنَا.

- قلت لي ديانتك ؟ و ما هي ديانتك هذه التي تُذهب الهموم وتجلب السعادة ؟

- ديانتي هي الديانة المزدكيّة ، و إلهنا هو (كورانا) ومعنى اسمه هو النورُ القاهر وإذا آمنت بديننا فإنّ فتصبح ذا طبيعة إلهيّة تسمّى (فروهار) وعندها تسمّى أنت بـ (خودا مهمان) أي الإنسان الذي حلّ فيه الله ، في ديننا الكثير من الرياضات الروحيّة التي تجعلك تحلّق في السماء ومن طقوسنا تعاطي (المنخ) [٧] وهو مادةٌ روحيّة مستخرجة من نبات خاص ، فإذا شممتها جُزتَ عالَمَ الغيب ، وارتقت نفسك إلى العلياء وتحرّرت من ثواقلها ، و اطّلعت على عالَم الملكوت واللاهوت ، و ديننا له سعةٌ ، فأحلَّ النساءَ وأباحَ الأموالَ وجعلَ النَّاس شِركةً فيه ، كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ ، فما قولك أن تعتنق ديننا ؟

- مَاذا تقول ؟! ، اغرب عن وجهي ، لا أريد .

---

(٧) أو البنج بالعربية ، (المخدِّرات) .

* * *

-١٠-

إن الذي يهرب إلى الأمام لن يجد إلا أخطاءه وكوارثه ماثلةً أمامَه كَملك الموت وملائكة العذاب .

تُقلعُ الطائرة بـ (راسبوتين) من اسطنبول إلى موسكو من أجل عقد بعض الصفقات هناك ، و حضور ذكرى الاحتفال بالنصر على ألمانيا ، لقد سافر فجأةً ، وفي جوّ السماء عَرَضَ مطَبٌّ جوّي للطائرة التي يركبها ، عندها اضطربت الطائرة اضطرابًا شديدًا ودبَّ الرعبُ في الركاب وصاح (راسبوتين) :

- إلهي ، لم أؤمن بوجودك ساعةً من نهار ، ولم أسجد لك سجدةً في صلاة ، و لم أدعُكَ يومًا في شِدَّة ، فنجِّني هذه المرة فإنّك أنت الغفور الرحمن الرحيم .

ولكنه ما إن هبط في المطار ، مطار فنوكوفو الدولي ، إلا مرَّ كأنْ لم يدعو الله لضرٍّ مسّه كانَ محلٌّ بائع التحف الروسية و سيارةُ (مرسيدس) من سياراته الفارهة في انتظاره ، على حين كانت الدمى الروسية ماتريوشكا تنظر للواصلين والمغادرين ، و كأنّ الحياةَ ليست إلا دمية ماتريوشكا الروسية ، الدُّميةُ إثرَ الدُّميةِ إثرَ الدُّمية ، ثمَّ لا شيءَ إلا السرابُ والفراغ والموت والعدم ، أو كأنّ القمار كذلك ، أو إنَّ أكثرَ ما يشابه ماتريوشكا هو المقامرةُ بالحياة وهدرُها على أهواءَ لا قيمةَ لها !!.

يلوحُ -بعد عدّة ساعات- الميدان الأحمر وسطَ موسكو بمبانيه التاريخية الضخمة ومبناهُ القرمزي المميَّزِ أمام (راسبوتين) ، بينما تبدو قبعاتُ جنود المراسم الرُّوس أكبرَ من رؤوسهم ، تبدو موسكو كئيبةً موحشةً والصقيع يضرب أرجاءها وتحتاج إلى ظلِّ الإسلام و دفئه ، لم يلحظ (راسبوتين) انتفاخ بطنه في الأسبوع الأخير لقد أُصيب بتشمّع الكبد لكثرة تَشرابه الخمور ، و فجأةً ضاق نَفَسُه وطلب من سائقه فتحَ شبابيكِ السيارةِ بسرعةٍ ، و قال له :

- خذني إلى أقرب مستشفى أكاد أختنق ، و أخرج مسدسه من جيبه و وضعه في مؤخِّر رأس سائقه ، وقال له ، انطلق بسرعة وإلا قتلتك ، هيّا أسرِع .

لكنّه ما لبثَ أن شَرَعَ يتقيَّأُ دمًا ، لقد أفرطَ في عبِّ الخمر في الليلة الماضية ، لقد انتفخ بطنه حتّى صارَ كبطن امرأةٍ حامل ، و ها هو يدخل غرفة العناية المكثفّة .

يخرجُ الطبيبُ من الغرفة دون أنّ يلمحَ التَّوترَ والغضبَ على وجهِ سائق (راسبوتين) و رجالِه ، فيسألُه أقربهم مكانَةً من (راسبوتين) عن حاله ، فيقول الطبيب :

- لقد استقر وضعه الآن ، لقد أصيب بالاستسقاء ، لكَثرة شربُه الخمر ، و تخلصنا من مقدار كبير من المياه المتجمّعة في بطنه ورئتيه وساقيه ، لكنْ إنْ لم يتوقَّف عن شرب الخمر ، و يلتزم العلاج والراحة فسوف يمتلئ بطنه من جديد .

- شكرًا لك أيّها الطبيب ، لو قلت لنا أنّ روحَه قد نُزِعَت لما ساءَنا ذلك .

- ماذا تقول يا سيّد ؟

- لا شيءَ ، أيّها الطبيب ، لا شيء ، اهتمْ بعملك ، شكرًا لك .

- شكرًا .

- وكما يقول المثل التركيّ ، عندما يرمي مجنون حجرًا في بئرٍ فإنَّ أربعين حكيم لا يمكنهم استخراجه !

لقد ذكّرني انتفاخُ بطن (راسبوتين) وشكلُها هذا بحال الناس في إفريقيةَ فليس كل صاحب كرشٍ كبير هو شَبعانُ في الحقيقة ، فإن جوعى أفريقية أيضًا بطونهم منتفخة بسبب سوءِ وشُحِّ التغذية !

*　　*　　*

-١١-

بعد فترةٍ من الزمن ، في موسكو ، يقتاد رجالٌ أشدَّاء يلبسون سترةٍ بنفسجيّة شبابًا آسيويين مهاجرين هجرةً غيرَ قانونية إلى روسيَّةَ ، وقد عثروا عليهم في بيت تحتَ مستوى الأرض شديدِ الرطوبة ، لا يَصلُحُ للسكن الآدميّ مع عدّة شبابٍ ، إلى مكتبٍ لـ (راسبوتين) في موسكو فلمَّا مَثُلوا أمامَه صاح بهم :

- لماذا أتيتم إلى هنا ، لا نفع لكم في دولتنا سوى التسكّع كالكلاب في الشوارع والأزقة ، لقد أصبح عددكم في روسية أكثر من أربعة ملايين لاجئ أجنبي غير شرعيّ هنا .

- هذا صحيح يا سيّدي ، لكننا نعمل بمرتَّب لا يزيد عن مئتي دولار في الشهر ، وهو لا يكفينا ، و أحوالنا وصلت درجةَ الحضيض .

- إذن لماذا جئتم إلى هنا ، أخبروني ، بسرعة ، لماذا ؟!

- هاجرنا نبحث عن عمل - سيدي – بسبب سوء الأوضاع الاقتصادية في بلادنا كما تعلم .

- بسبب سوء الأوضاع الاقتصادية إذن ، سأسلمُّكم إلى الشرطة لتطردكم من بلادنا .

- نرجوك يا سيّدي لا تفعل ، يجب أن نعمل ، و نعيل عائلاتنا في بلادنا ، نتوسّل إليك .

و ينقضّون على قدمي (راسبوتين) يقبّلونهما في مشهد مذّلٍ مُريع .

- مالكم تكاثرتم عليّ كالكلاب ؟! ابتعدوا ، فأنتم تُخرّبون أناقةَ بنطاليّ المخمليّ.

- سلّموهم حالًا إلى الشرطة يا شباب ، فنحن لا ينقصنا المزيد من الكلاب في بلادنا .

فيسحب الرجالُ ذوي السُترات البنفسجية هؤلاء الشباب الآسيويين البائسين و يقتادونهم إلى مركز الشّرطَة صاغرينَ .

* * *

-١٢-

و بعد مُضيِّ عدّة شهور ،(أوكتاي) و (خلدون) يتسامران كعادتهما :
يرشُف (أوكتاي) رشفةً من الشاي و يسأل :
- لماذا تُكثرُ من الصمتِ يا خلدون ؟ فما أراكَ إلا صامتًا متأمِّلًا .
- لأنّ أعتقدُ أنَّ التأمّلَ خميرة الحكمة ، يا أخي العزيز ، و أنا أيضًا أريدُ أن أسألكَ يا (أوكتاي) لماذا دائمًا ما أراك مستيقظًا في الليل ، قليلَ الهجوعِ ؟!
- لأنّني أملك بين جنبيّ وفي رأسي شيئًا يمنعني من النوم ، ضميرًا وقلبًا شائكًا يحثني على العمل والانطلاق ، فالضمير نارٌ طاردةٌ تأخُذُ بِحُجَزِنا عن الظلم ، و الضمير الحيّ ، أسدٌ مترِبّصٌ هصورٌ يمنعنا من الوقوع في الحِمَى ! و إنَّه ليس أكيدًا أنّك في كل مرة تَراكَ تسقط فيها ستجد نفسك على السرير والمخدة ! وإنّ المسلم الفطِنَ يمكن أن يتلقّى اللكمات ولكنّه أبدًا لا يمكن أن يسقطَ بالضربة القاضية ، لذلك دائمًا حذري شديدٌ ، فلا تتفاءل عندما ترى ضوءًا في آخر النفق فقد لا يكون إلا ضوءَ قطارٍ سريعٍ قادمٍ لسحقنا ، وحال أُمتّنا الإسلامية اليوم ، أنّ كل امرئٍ يغني على ليلاه في حينِ أنَّ عيونَ الذئاب تلمَع غيرَ بعيدٍ .
- مع الأسف والحسرةِ هذا هو الحال ، بل إنَّهم يمتنعون عن بناء وتعظيم الأصنام الحجرية بينما هم يتخذون الأصنام البشرية .! ولكنني أعلمُ جيّدًا أنَّ لُبس ((الرجال)) للقيود حرامٌ ، سواءً أكانت من الذهب أو من الفضة أو

من الحديد !.

وهناك من يبيع نفسه لله تعالى ، وهناك من يبيع نفسه للشيطان الرجيم ، وهناك من يؤجر نفسَه إلى أَمدٍ ، وهناك من يبيع نفسه مجانًا !

لذلك أحيانًا يحتاج البعض أن يُصفَع لكي يشعر بوجوده وأهمية وجوده ، فطوبى لمن يرشُّ الوعي على الوجوه والرؤوس النائمة .

فإنَّ العالم بغير وجود المسلمون المصلحين هو كعالمٍ لا يوجد فيه نبي رسول .

لذلك أرجو أن يتمثّل شباب الأمة الإسلامية حديث الرسول صلى الله عليه وسلّم "اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ : شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ " فلو كان العُمْرُ رَجُلًا لاعتقلته ، و لو كان الشباب ماءً لزمزمته ، ولو كانت الصِّحةُ غزالًا لاصطدته ، ولو كان الغِنى صقرًا لحنطته ، ولو كان الفراغ سُلْبًا لغنمتُه .

فمن السمّات الظاهرة للأمم المتقدمة دنيويًا تركُ أفرادها ما لا يعنيهم وتركيز اهتمامهم على أعمالهم وتثميرها والإبداع والتوسع فيها ووظائفهم والالتزام والإخلاص فيها . ومن السمّات الظاهرة للأمم المتخلفة دنيويًا انشغال أفرادها بما لا يعنيهم من فضول القول والعمل وسفاسف الأمور ، خلا الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر والاهتمام بأمور الأمة والتناصح والتزاور . فيجب على المسلمين أنْ يحلُّوا أمورهم بأيديهم فلا يحكُّ جِلدَك مثلُ ظفرك ، وألا يَسعَدوا عندما يتولّى مسلمٌ أو فردٌ من وطنهم منصبًا في البلاد الغربية لأنّه لا يمثِّلُ ولا يستطيعُ أن يمثِّل أو يعبِّر إلا عن أفكار الحكومات التي وضعته ولن

يُحقق إلا ما تسمح به معتقداتها وأفكارها وقيمها وإلا فما الفرق بين (قاتلِ حمزة) و (بلالٍ مرتقي الكعبة) !؟

فعلى الشبابِ المؤثر أن لا يعجبوا أو يتأففوا ويضيقوا ذرعًا بالوقائع من حولكم فإن ذنبهم بل ميزتهم أنهم في هذا الزمان ، جيلُ النهوض والتأسيس للإقلاع في الدورة الحضارية الجديدة القادمة للأمة الإسلامية ومن كانت هذه حاله فعليه أن يدفع الضريبة ويبذل الجهود المضاعفة وتحمّل المصاعب حتى تحقيق الارتفاع المستقر والمتواصل لمنحنى هذه النهضة .

وأن يحاولوا أن يأخذوا أفضل ما في العولمة ، و يلفظوا نُواها وسمومها ، ولا تغرّنَّهم نعومةُ العولمة وآثارها فإنَّ أرهفَ السيوفِ والسكاكين تلك التي تطعن عميقًا !

فلو أنَّ كلَّ إنسانٍ قطفَ وردةً فلن يبقى حقلٌ ولا حديقةٌ !

وأنْ يعملوا بإيمانهم ، فما قيمة إيماني إن لم أعتقد به حقيقةً و أتمثّلُه عملًا و واقعًا فالذي يقول إنّه لا حقيقةَ مطلقةً ، أقول له : اكفُر بدينك الذي تؤمن به الآن ! فما من جدوى لإيمانك به ؟! فالحقيقة نسبية ، وما من حقيقةٍ مطلقة ، أليس كذلك ؟؟!

وهكذا أكون أبطلت حجَّتَهُ وبيَّنتُ وهنها وهوانها .

لقد قويت في هذا العصر – عزيزي (أوكتاي)- شوكةُ الماديّة و الانحلال من الدين ، حتّى طحنت المادّة عبّادها وأرهقتهم وأضعفتهم وتكاد تفنيهم ، لخلوِّ نفوسهم من بواعث التحرر ، أما المسلم فلديه الإسلام ، الدين الكامل والصحيح والأوحد ، ففي المسلم عوامل التحرر والتحرير و النهوض

ومن كانت عواملُ النهوض في نفْسهِ تغلبُ عواملَ الخمول فليس لمثله أن ينهزم !

- نعم يا خلدون ، صحيح ما تقولُ ، فلديّ مدير الشركة الثري التي أعمل فيها (راسبوتين) فقد أدمن لعبَ القمار ، وقد قرأت مرةً عن نفسيّة المُقامر وخصائصها فاسمح لي أن أتحدَّث عنها .

- تفضّل ، كلّي أذانٌ صاغية .

- إنَّ إرادة الربح عند المقامر تعني وجوده في الواقع وما هو إلا وهم ، أي أنَّ المقامر يظن أنّه سيربح لمجرَّد رغبته بذلك ، وما هو إلا وهمٌ ، ولا توجد قاعدةٌ ثابتةٌ عند المقامر ، فهو يقول لنفسه إذا خسرتُ في المرة الأولى فسأربح في المرة الثانية وإذا خسرت في المرة الثانية فسأربح في الثالثة وإذا ربحتُ في المرة الأولى فسأربح في المرة الثانية والثالثة ، وهذه كلُّها أوهام يُقنِعُ المقامر نفسَه بها ، فالمقامر ينشأ لديه من شدة ملاحظته وتنبهه ، توهمٌ بمعرفته كل شيء عن موظَّفيه و مجتمعه ، و يرزح المُقامر من الأمراض النفسية التي تفتك به كالتَّشوُّه المعرفي ، والنقص في تقدير الذات ، و اليأس ، والإدمان ، فيتحول المال لديه من هدفٍ إلى وسيلة من أجل ممارسة المقامرة ، و يُعاني من خنق الضمير و الغرق في ثقافة الفقر والفشل المتواصل .

القمار كالدُّوَّامة ما إن تقترب منها حتى تسحبك و تغرقك ، كالكهرباء ما إن تلمسها إحدى يديك حتى تصعق كاملَ جسدك ، و لذلك

حرَّمه الإسلام لأنّه يعطِّل قوى الإنسان ويصرفها عن عمارة الأرض وذكر الله .

* * *

-١٣-

طرقٌ سريعٌ على الباب .

- انظري من في الباب يا خيرية ، فليكن الله راضيًا عنك .

- من في الباب ؟

- مراد ، أمي أنا مراد ، افتحي بسرعة من فضلك ، زوجتي تعالج الطَّلْقَ ، لقد أحضرتها لتلد هنا و تدبّروا أمرها .

- هيّا يا بني أدخلها بسرعة .

* * *

استهل المولود الجديد ببكاءٍ شديد ، كشفَ سكونَ ليلِ اسطنبولَ الطويلِ .

- انظر يا أبي إلى أصابع يدي وليدي الصغير ، إنها أشبه بِجُزٍّ حلوٍ من ثمرة المندالينا ، انظر كم هي ناعمة .

- حماه الله ورعاه ، ماذا ستسمِّيه يا بني ؟

- سأسمّيه على اسمك يا أبي .

- لا ، سمّه باسم فاتح هذه المدينة المبارك ، محمد الفاتح ، الذي فتحها بعد إحدى عشر محاولةً ، و ورد ذكره في الحديث الشريف .

- حسنًا ، سأسمّه (أردم محمد الفاتح) ما رأيك يا أبي ؟

- إنّه اسمٌ جميل ، سيكون شجاعًا كجَدِّه إنَّه يصرخ بقوة .

- إن شاء الله يا أبي ، إن شاء الله ، جعله الله من المصلحين .

- آمين

- آمين.

* * *

-١٤-

يحتسي (أوكتاي) حُسوةً أخرى من الشاي ، ليرنَّ هاتفُه الجوَّال بنغمة نشيد (MEHTER) العثمانيّ ليردَّ ويقول :

- تمام ، أمرك سيّدي ، حالًا ، قبل أن يقول :

- هناكَ مثلٌ تركيٌّ يقول يا خلدون ، إنّ القدر مكتوبٌ بمداد من حليب على ورقةٍ بيضاءَ ناصعةٍ ، فادع لي يا خلدون ، هناك مهمة يجب أن أضطلع بها ، ادع لي يا أخي .

- و ماهي هذه المهمة التي يجب أن تقوم بها في هذا الوقت من الليل ؟!

- لا أستطيع أن أُخبرك الآن ، يا صديقي ، عندما أعود أشرح لك ، إلى اللقاء

- حماك الله وحفظك من كل مكروه ، وسدد خُطاك أخي الحبيب .

* * *

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إذا فجئك الموتُ فقد غَفَلتَ عن ذكره .

- الليلةَ يا سادة ، أردتُ أن أستضيفكم هنا ، في شركتي الخاصّة هنا ، في اسطنبول ، من أجل أن نتبارى بالقمار هنا ، أرجو حظًّا سعيدًا .

وعلى طاولةٍ بيضاويّةٍ متطاولةٍ وفاخرةٍ مصنوعة من خشب الجوز الأمركي و مغطاة بسطح من الزجاج اللامع الثخين جلس المتبارون من أثرياء و رجال أعمال ، لخوضِ منافساتِ القمار الطويلة ، وقد امتلأت بكؤوس الخمور وصحون الفاكهة المُختلِفة .

لقد بدأت المباريات بمبالغ هائلة ، لقد بدأ (راسبوتين) بخمسمئة ألف دولار للعب عليها ، فلم يتجرأ أحدٌ على التفريط بهكذا مبلغ ، فتقدَّم (ماتزوف) و وضع خمسمائة أخرى على الطاولة بهدوء ، وسطَ نظراتٍ التعجّب والاندهاش من الحاضرين ، ونظراتٍ لا تستطيع إخباء الحقد الذي في قلوب أصحابها المتشاحنين .

لقد خسر (راسبوتين) أول جولةٍ و أطاح بنصف مليون دولار في جَلسةٍ واحدةٍ ، لكنّه يبدو غيرَ عابئ أو مكترثٍ بذلك ، لقد وضع عِوضًا عنها ألفَ ألفِ دولار كاملةً على الطاولة متحدِّيًا الجميع ، فتقدَّم رجلٌ آخر من أرمينيةَ ، و وضع مثلها على الطاولة ، وما لبثَ أنْ أخذهما سويًّا بطرفةِ عينٍ ، بدأ التوتّرُ والغضبُ يظهرُ على صفحات وجه (راسبوتين) بوجهه الأبيض وقبّعته السوداء التي تغطّي صلعتَهُ ، لكنّه أَخَذَ نَفَسًا طويلًا ، ثُمَّ دَفَعَ بخمسةٍ

وعشرين مليونَ دولارٍ دُفعةً واحدةٍ ، فدقَّت قلوبُ المُقامِرين لما رأوا ، و شَرِقُوا بِريقِهم ،

فتقدَّم (ماتزوف) واضعًا مثليها ، فاغتاظ (راسبوتين) و دفعَ بمئة مليون دولار دُفعةً واحدةٍ ، فتمم (ماتزوف) الخمسينَ مليونَ دولارٍ الأولى إلى المئة ، و بعد هنيهةٍ من الزمن ، ضمّ (ماتزوف) مئتي المليون دولار إلى جناحه ، بعد أن كاد يتوقَّف قلبه عن النبض وقلوبُ الحاضرين ، بينما بدا (راسبوتين) مرتاحًا ، و مُريبًا بذات الوقت ، فما لبث أن دَفَع بنصف مليار دولار عدًّا ونقدًا دُفعةً واحدةً ، فلبثوا مليًّا إلى أن دَفَع (ماتزوف) بمليار دولارٍ كاملةً مرَّةً واحدةً ، فأتبعَ (راسبوتين) نصف مليارِه الأوّل بنصف مليار آخرٍ ، و ما لبثَ أن خَسِرَ (راسبوتين) للمرّة الألف ، وهو لا يبدو عليه عظيم اكتراثٍ ، فجأةً تنبَّه (ماتزوف) إلى أن نقودَ (راسبوتين) التي يلعب بها مزيفة ، و بإشارةٍ منه كلمحٍ بالبصر ، أطلق النار هو ورجالهُ على (راسبوتين) و رجالِه ، فقتَل (ماتزوف) و رجالُه رجالَ (راسبوتين) ، ثُمَّ التفت إلى (راسبوتين) و هو قد أصابَه في خاصرته و قَدَمِه فقال له :

- أَوَتظُنَّ أنَّ أمامَكَ حمقى أيّها الحقير ؟! هيَّا أبدلني بالنقودِ المزوَّرة نقودًا صحيحةً وإلا أجهزتُ عليك .

فردَّ راسبوتين :

- حسنًا ، و لكن لا تقتلني أرجوك .

و دلَّه على مكان النقود الصحيحة ، فأخذ ملياري دولارٍ كاملتين ، فما لبث أن قال له :

- والآن هل أنت مستعدٌ لإكمال التباري ؟ و لكن هل بقي لديك مالٌ ؟ إذا لم يكن بقي لديك مالٌ فعلامَ سوف تلعب يا سيّد (راسبوتين) .

- لا تقلق ، سألعب على قيمة زوجتي و ولديَّ الصغيرين ، بإمكانك ، أن تأخذهم عبيدًا وإماءً لو فزت .

- لا ، لا أريد ، ماذا سأفعل بهم .

ليقطعَ جدلُهم هذا صَوتُ سيارات الشرطة التركية ، و أضواء كشَّافاتها الحمراء والزرقاء ، وهي تحاصِر مبنى شركة (راسبوتين) لتصدح مِصْواتَاتُها بالقول :

- لقد حصلنا على أدلّةٍ تُثبت تورُّطَ المدعو (راسبوتين) بعمليات قتلٍ ونصبٍ و اعتداءٍ على بعض الموظفين في شركته و قيامه بسرقة أعضائهم البشرية وبيعها ، سلّموا أنفسكم ، حالًا .

صرخ (ماتزوف) بـ (راسبوتين) :

- لماذا أتت الشرطة التركيّة إلى هنا ، ماذا فعلتَ حتّى أتوا إلى هنا ، أخبرني .

- و ما أدراني لماذا تأتي الشرطة إلى هنا ، قُم بعلاجي فأنا أنزف وإلا فسوف أموت .

- فلتَمُتْ ، فأنت مجرَّدُ لصٍّ ، ماكرٍ .

- هذا نداءٌ أخير ، من لا يُسلِّم نفسه ، فسوف نعالجُه بالقوة .

خرج لاعبو القمار أثرياء اسطنبول ليسلِّموا أنفسهم للشرطة بينا لم يَخرج أحدٌ من رجال (ماتزوف) ، لا بُدَّ أنَّ لديهم ما يخفونه هم أيضًا ، فلقد أخذوا مواقعهم و توزَّعوا على طوابق مبنى الشركة الطويل وتحصنُّوا ، للاشتباك مع

الشرطة التركية .

- إلى الآمر (أوكتاي) حوّل .

- أمركَ سيّدي .

- انتهت المُهلة .

- ابدأ الهجوم ، واحرص ما استطعت على اعتقالهم أحياءً .

- أمركَ سيّدي .

فانهمَر الرصاصُ من كلُّ حدْبٍ وصوبٍ ، بين الشرطة التركية ، وبين رجال (ماتزوف) ، ليملأ صدى الرصاصِ ، ليلَ اسطنبول الهادئ ، و يحيلَه ضحًى لكثرة النيران التي تُطلق من الأسلحة ، بكثافة المطر ، وتحطَّمت الشبابيك والأبواب الزجاجية و تطايرت كؤوس الشّرابِ بما فيها ، و تحطّمت الصحون و تطايرت الفاكهة ، وتخرَّقت مئات الرُّزَم من الدولارات الخضراء و الطاولة البيضاوية المصنوعة من خشب جوز الهند إثر الرصاص المنهمر ، وبعد ثلاث ساعات من الاشتباكات استطاعت الشُّرطة القبض على (ماتزوف) حيًّا على حينَ فارقَ (راسبوتين) الحياة إثر نزيفه الحاد و استشهد الضابط الجَسور (أوكتاي) إثر رصاصةٍ من (راسبوتين) قبل أن يموت أصابته في قلبه ، ليروِّي علَمَ النجمة والهلال الخفَّاقَ بدمه ، علَّهُ يبتسم ، هذه النجمةُ وذلك الهلال قد تماهيا في رفعةٍ مع نجوم السماء و ألق الهلال .

و غير بعيد من ساحة تقسيم تبدو أبراج (ترمب) [٨] الأربعة في منطقة (مجيدية كوي) القريبة من (تقسيم) كأربعة أصنام ضخامٍ لعادٍ وثمود

---

[٨] ( ) رئيس أمركا ورجل الأعمال .

وقوم صالحٍ ، تبدو هذه المراكز التجارية التي تناطح السحاب كرجالٍ عمالقةٍ بأيديها صولجاناتٌ مدبَّبةٌ تُريد أن تدمِّر مباني الآخرين وبيوتهم ، تبعثُ الخوفَ و الكآبةَ لكل ناظرٍ إليها

***

ها هو الصَّباحُ يَحُلُّ على اسطنبول ، وعلى مَبنَى الشَّركةِ الضّخمِ الذي شَهِدَ اشتباكَ الليلةِ الماضية ، ليختلطَ في نسيمه البارِد روائحُ طّيبةٌ كالمِسكِ وأخرى نتنةٍ كالخمرِ العفِنِ ، يصلُ العمُّ (أردم) إلى مبنى الشركةِ ليفاجَئَ بجثثٍ ودماءٍ متناثرةٍ في أنحاء الشركةِ - وكان قد أخفَى اندهاشَه مِن تراصّ سيارات الشُّرطة وتحلُّقها حولَ المبنى – لِيُراعَ برؤية جُثَّةِ (أوكتاي) بعدَها جُثَّةُ (راسبوتين) مديرِ الشركة لينفجرَ بالبكاءِ ولكن بعينٍ واحدةٍ وقد جَثَا على الأرض ، لِتَنهارَ (غول بَهار) بالبكاءِ إلى جانبه بعدَ رؤيتها للجُثَّتينِ ومعرفتِها أنَّ الذي اقتلعَ عينَ العمّ (أردم) و كُلْيَتَهُ (راسبوتين) ليعلوَ فوقَ صوتَي بُكائِهما صوتُ سيارةِ الجِنازة الخضراء التي قَدِمَتْ لزفِّ (أوكتاي) إلى مثواه وهي تصدحُ بالآيات :

(الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥)وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ

بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨))

* * *

هكذا إذن لم تبح اسطنبول بكل أسرارها وخباياها بعد ، مدينة ملوَّنة ، كتلوُّن أعين قطط مدينة فان ، مدينةُ تدافُع الخير والشر والظلم والعدل و الغنى والفقر والحياة والموت و الإسلام والكفر ، و الإنسانية و الطغيان ، والرحمة والظلم ، مدينةٌ بألفِ ألفِ مئذنةٍ ، مدينةٌ بألفِ ألفِ وجهٍ .